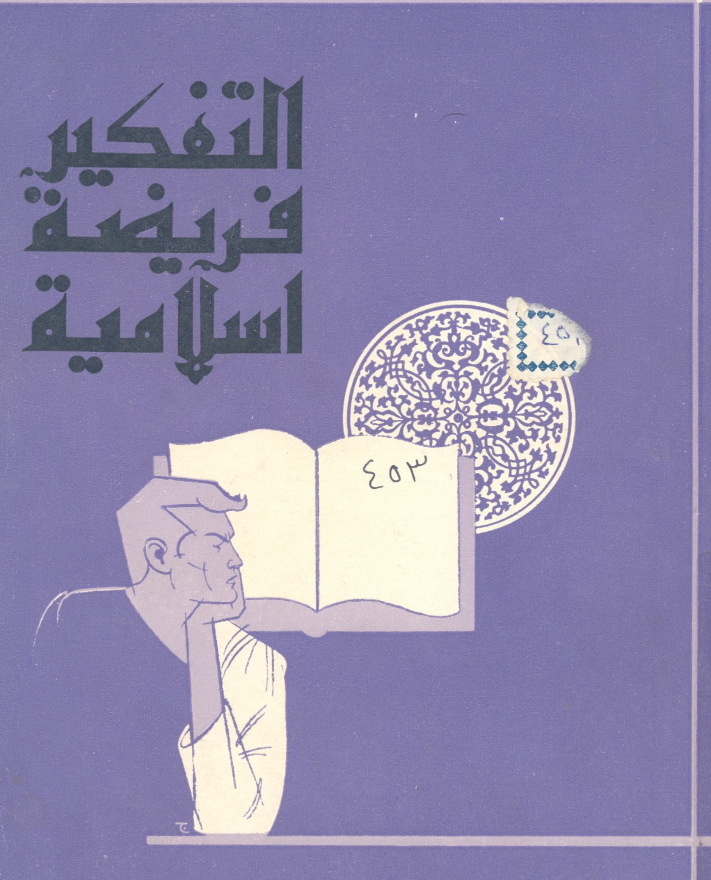
عباس محمود العقاد

التفكير فريضة إسلامية



دار الهلال

اهداءات ٢٠٠١

الدكتور/ القطب محمد طبلية

القاهرة

عباس محمود العقاد



دار الهلال

فريضة التفكير
فى كتاب الاسلام

من مزايا القرآن الكثيرة مزية واضحة يقل فيها الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين لأنها تثبت من تلاوة الآيات ثبوتا تؤيده أرقام الحساب ودلالات اللفظ اليسير ، قبل الرجوع فى تأييدها الى المناقشات والمذاهب التى قد تختلف فيها الآراء ..

وتلك المزية هى التنويه بالعقل والتعويل عليه فى أمر العقيدة وأمر التبعة والتكليف ..

ففى كتب الأديان الكبرى اشارات صريحة أو مضمونة الى العقل أو الى التمييز ، ولكنها تأتى عرضا غير مقصودة وقد يلمح فيها القارىء بعض الأحايين شيئا من الزراية بالعقل أو التحذير منه ، لأنه مزلة العقائد وباب من أبواب الدعوى والانكار ..

ولكن القرآن الكريم لايذكر العقل الا فى مقام التعظيم والتنبيه الى وجوب العمل به والرجوع اليه ، ولا تأتى الاشارة اليه عارضة ولا مقتضبة فى سياق الآية ، بل هى تأتى فى كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة ، وتتكرر فى كل معرض من معارض الأمر والنهى التى يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله أو يلام فيها المنكر على اهمال عقله وقبول الحجر عليه ، ولا يأتى تكرار الاشارة الى العقل بمعنى واحد من معانيه التى يشرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة ، بل هى تشمل وظائف الانسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها ، وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص فى مواطن الخطاب ومناسباته ، فلا ينحصر خطاب العقل فى العقل الوازع ولا فى العقل المدرك ولا فى العقل الذى يناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح ، بل يعم الخطاب فى الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن الانسانى من خاصة

أو وظيفة ، وهى كثيرة لا موجب لتفصيلها فى هذا المقام المجمل ، اذ هى جميعـا مما يمكن أن يحيـط به العقل الوازع والعقل المدرك والعقل المفكر الذى يتولى الموازنة والحكم على المعانى والأشياء ..

فالعقل فى مدلول لفظه العام ملكة يناط بها الوازع الأخلاقى أو المنع عن المحظور والمنكر ، ومن هنا كان اشتقاقه من مادة « عقـل » التى يؤخذ منها العقال ، وتكاد شهرة العقل بهذه التسمية أن تتوارد فى اللغات الانسانية الكبرى التى يتكلم بها مئات الملايين من البشر . فان كلمة « مايند » Mind وما خرج من مادتها فى اللغات الجرمانية تفيد معنى الاحتراس والمبالاة وينادى بها على الغـافل الذى يحتاج الى التنبيه ، ونحسب ان اللغات فى فروعها الأخرى لا تخلو من كلمة فى معنى العقل لها دلالة على الوازع أو على التنبيه والاحتراس ..

ومن خصائص العقل ملكة الادراك التى يناط بها الفهم والتصور ، وهى على كونها لازمة لادراك الوازع الأخلاقى وادراك أسبابه وعواقبه تستقل أحيـانا بادراك الأمور فيما ليس له علاقة بالأوامر والنواهى أو بالحسنات والسيئات ..

ومن خصـائص العقـل انه يتأمل فيما يدركه ويقلبـه على وجوهه ويستخرج منه بواطنه وأسراره ويبنى عليها نتائجه وأحكامه ، وهـذه الخصائص فى جملتها تجمعها ملكة « الحكم » وتتصل بها ملكة الحكمة ، وتتصل كذلك بالعقل الوازع اذا انتهت حكمة الحكيم به الى العلم بما يحسن وما يقبح وما ينبغى له أن يطلبه وما ينبغى له أن يأباه ..

ومن أعلى خصائص العقل الانسانى « الرشـد » وهو مقابل لتمام التكوين فى العاقل الرشيد ، ووظيفة الرشـد فوق وظيفة العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم ، لأنها استيفاء لجميع هذه الوظائف وعليها مزيد من النضج والتمام والتمييز بميزة الرشاد حيث لا نقص ولا اختلال ، وقد يؤتى الحكيم من نقص فى الادراك وقد يؤتى العقل الوازع من نقص فى الحكمة ، ولكن العقل الرشيد ينجو به الرشاد من هذا وذاك ..

وفريضة التفكير فى القرآن الكريم تشمل العقــل الانسانى بكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصــائصها ومدلولاتها . فهو يخاطب العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم والعقل الرشيد ، ولا يذكر العقل عرضا مقتضبا بل يذكره مقصودا مفصلا على نحو لا نظير له فى كتاب من كتب الأديان ..

***

فمن خطابه الى العقل عامة ــ ومنه ما ينطوى على العقل الوازع ــ قوله تعالى فى سورة البقرة :

« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن ماء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .

ومنه فى سورة المؤمنون :

« وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ »

ومنه فى سورة الروم :

« وَمِنْ آيَاتِهِ انْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ . وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ . وَهُوَ الذى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ».

ومنه فى سورة العنكبوت :

« وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ » .

ومنه ما يخاطب العقل وينطوى على العقل الوازع كقوله تعالى فى سورة الملك :

« وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ » .

وفى سورة الأنعام :

« وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » .

ومنه بعد بيان حق المطلقات فى سورة البقرة :

« كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » .

ومنه فى سورة يوسف :

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

ومنه فى سورة الحشر ، بيانا لأسباب الشقاق والتدابر بين الأمم :

« تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ » .

وهذا عدا الآيات الكثيرة التى تبتدىء بالزجر وتنتهى الى التذكير بالعقل ، لأنه خير مرجع للهداية فى ضمير الانسان ، كقوله تعالى فى سورة البقرة :

« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

وكقوله فى سورة آل عمران :

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

وكقوله تعالى فى سورة المائدة :

« وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ » .

وفى سورة الأنعام :

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ »

وفى سورة هود :

« يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

وفى سورة الأنبياء :

« أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

***

وفى غير هذه السور الكريمة تنبيه الى العقل فى مثل هذا السياق يدل عليه ما تقدم فى هذه الآيات ..

***

ان هذا الخطاب المتكرر الى العقل الوازع يضارعه فى القرآن الكريم خطاب متكرر مثله الى العقل المدرك أو العقل الذى يقوم به الفهم والوعى وهما أعم وأعمق من مجرد الادراك . وكل خطاب الى ذوى الألباب فى

القرآن الكريم فهو خطاب الى اللب ـ هـذا العقل المدرك الفاهم لأنه معدن الادراك والفهم فى ذهن الانسان كما يدل عليه اسمه باللغة العربية ..

***

« وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الأَلْبَابِ » . (سورة آل عمران)

***

« قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » . (سورة المائدة)

***

« الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ » . (سورة الزمر)

***

« لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ » . (سورة يوسف)

***

« يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الأَلْبَابِ » . (سورة البقرة)

***

« وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ » . (سورة البقرة)

***

« وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » . (سورة البقرة)

ومن هذه الآيات تتبين ان اللب الذى يخاطبه القرآن الكريم وظيفته عقلية تحيط بالعقل الوازع والعقل المدرك والعقل الذى يتلقى الحكمة ويتعظ بالذكر والذكرى ، وخطابه خطاب لأناس من العقلاء لهم نصيب من الفهم والوعى أوفر من نصيب العقل الذى يكف صاحبه عن السوء ولا يرتقى الى منزلة الرسوخ فى العلم والتمييز بين الطيب والخبيث والتمييز بين الحسن والأحسن فى القول ..

***

أما العقل الذى يفكر ويستخلص من تفكيره زبدة الرأى والروية فالقرآن الكريم يعبر عنه بكلمات متعددة تشترك فى المعنى أحيانا وينفرد بعضها بمعناه على حسب السياق فى أحيان أخرى . فهو الفكر والنظر والبصر والتدبر والاعتبار والذكر والعلم وسائر هذه الملكات الذهنية التى تتفق أحيانا فى المدلول ــ كما قدمنا ــ ولكنها لا تستفاد من كلمة واحدة تغنى عن سائر الكلمات الأخرى ..

« وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُم الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ » .

(سورة البقرة)

***

« الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ »

(سورة آل عمران)

***

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ »

(سورة الانعام)

***

« يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »

(سورة النحل)

« أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ »

(سورة الروم)

***

« اُنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ »

(سورة الانعام)

***

« أَوَ لَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ »

(سورة الاعراف)

***

« قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ »

(سورة يونس)

***

« أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ »

(سورة ق)

***

« أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ »

(سورة الغاشية)

***

« مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ »

(سورة القصص)

***

« أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا

تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون »

(سورة السجدة)

***

« والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار »

(سورة آل عمران)

***

« أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين »

(سورة المؤمنون)

***

« كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته »

(سورة ص)

***

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها »

(سورة محمد)

***

« فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار »

(سورة الحشر)

***

« ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون » (سورة البقرة)

***

« وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون »

(سورة الانعام)

***

« أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب » (سورة الرعد)

« وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ » (سورة النحل)

***

« أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى » (سورة عبس)

***

« فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » (سورة النحل)

***

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون » (سورة القصص)

***

« وَيُعَلِّمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ » . (سورة البقرة)

***

« قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ » . (سورة البقرة)

***

« وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » . (سورة الانعام)

***

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » . (سورة الزمر)

« يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » . (سورة المجادلة) .

***

« هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » . (سورة يونس)

***

« قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا » . (سورة الكهف)

***

« خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ » . (سورة الرحمن) .

***

« الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

(سورة العلق) .

***

« وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ » .

(سورة آل عمران) .

***

بهذه الآيات وما جرى مجراها تقررت ولا جرم فريضة التفكير فى الاسلام ، وتبين منها ان العقل الذى يخاطبه الاسلام هو العقل الذى يعصم الضمير ويدرك الحقائق ويميز بين الأمور ويوازن بين الأضداد ويتبصر ويتدبر ويحسن الادكار والروية ، وانه هو العقل الذى يقابله

الجمود والعنت والضلال وليس بالعقل الذى قصاراه من الادراك انه يقابل الجنون . فان الجنون يسقط التكليف فى جميع الأديان والشرائع وفى كل عرف وسنّة ، ولكن الجمود والعنت والضلال غير مسقطة للتكليف فى الاسلام ، وليس لأحد أن يعتذر بها كما يعتذر للمجنون بجنونه ، فانها لا تدفع الملامة ولا تمنع المؤاخذة بالتقصير ..

ويندب الاسلام من يدين به الى مرتبة فى التفكير أعلى من هذه المرتبة التى تدفع عنه الملامة أو تمنع عنه المؤاخذة . فيستحب له أن يبلغه بحكمته ورشده ، ويبدو فضل الحكمة والرشد على مجرد التعقل والفهم من آيات متعددة فى الكتاب الكريم يدل عليها قوله تعالى :

« وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيراً كَثيراً »

ويدل عليها ان الأنبياء يطلبون الرشد ويبتغون علما به من عباد الله الصالحين ، كما جاء فى قصة موسى وأستاذه عليهما السلام ..

والذى ينبغى أن نثوب اليه مرة بعد مرة أن التنويه بالعقل على اختلاف خصائصه لم يأت فى القرآن عرضا ولا تردد فيه كثيرا من قبيل التكرار المعاد . بل كان هذا التنويه بالعقل نتيجة منتظرة يستلزمها لباب الدين وجوهره ويترقبها من هذا الدين كل من عرف كنهه وعرف كنه الانسان فى تقديره ..

فالدين الاسلامى دين لايعرف الكهانة ولايتوسط فيه السدنة والأحبار بين المخلوق والخالق ، ولا يفرض على الانسان قربانا يسعى به الى المحراب بشفاعة من ولى متسلط أو صاحب قداسة مطاعة ، فلا ترجمان فيه بين الله وعباده يملك التحريم والتحليل ويقضى بالحرمان أو بالنجاة ، فليس فى هذا الدين اذن من أمر يتجه الى الانسان من طريق الكهان ، ولن يتجه الخطاب اذن الا الى عقل الانسان حرا طليقا من سلطان الهياكل والمحاريب أو سلطان كهانها المحكمين فيها بأمر الاله المعبود فيما يدين به أصحاب العبادات الأخرى ..

« فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ » .

لا هيـــكل فى الاســـلام ، ولا كهانة حيث لا هيـــكل .. فكل أرض مسجد ، وكل من فى المسجد واقف بين يدى الله ..

ودين بلا هيكل ولا كهانة لن يتجه فيه الخطاب ــ بداهة ــ الى غير الانسان العاقل حرا طليقا من كل سلطان يحول بينه وبين الفهم القويم والتفكير السليم ..

كذلك يكون الخطاب فى الدين الذى يلزم كل انسان طائره فى عنقه ويحاسبه بعمله فلا يؤخذ أحد بعمل غيره :

« وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » و « كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ » . . .

« وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَه سَوْفَ يُرَى » .

فاذا كان فى الأديان دين يجتبى القبيلة بنسبها أو يجتبى المرء قبـــل مولده لأنه مولود فيها ، أو كان فى الأديان دين يحاسبه على خطيئة ليست من عمله ، فليس فى الاسلام انسان ينجو بالميلاد أو يهلك بالميلاد ، ولكنه الدين الذى يوكل فيه النجاة والهلاك بسعى الانسان وعمله ، ويتولى فيه الانسان هدايته بفهمه وعقله ، ولا يبطل فيه عمل العقل أن الله بكل شيء محيط ، فان خلق الانسان للعقل لايسلبه القدرة على التفكير ولا يسلبه تبعة الضلال والتقصير ..

وعلى هذا النحو يتناسق جوهر الاسلام ووصاياه . وتأتى فيه الوصايا المتكررة بالتعقل والتمييز منتظرة مقدرة لا موضع فيها للمصادفة ولا هى مما يطرد القول فيه متفرقا غير متصل على نسق مرسوم . فانها لوصايا « منطقية » فى دين يفرض المنطق السليم على كل مستمع للخطاب قابل للتعليم ، وهكذا يكون الدين الذى تصل العبادة فيه بين الانسان وربه بغير واســـطة ولا محاباة ، ويحاسب فيه الانســـان بعمله كما يهديه اليه عقله ، ويطلب فيه من العقل أن يبلغ وسعه من الحكمة والرشاد ..

الموانع والاعذار

حين يكون العمل بالعقل أمرا من آوامر الخالق يمتنع على المخلوق أن يعطل عقله مرضاة لمخلوق مثله ، أو خوفا منه ، ولو كان هذا المخلوق جمهرة من الخلق تحيط بالجماعات وتتعاقب مع الأجيال ..

والموانع التى تعطل العقل من هـذا القبيل كثيرة يستقصيها القرآن الكريم كما استقصى خطاب العقل بجميع وظائفه وملكاته ، ولكنها قد تتجمع فى ثلاثة موانع كبرى بمثابة الأصـول التى تتشعب منهـا الموانع المختلفة ، فمن سلم منها أوشك أن يسلم من كل مانع يحجر على عقله ويأخذ السبيل على تفكيره فلا يهتدى الى رأى سواه ..

أكبر الموانع فى سبيل العقل عبادة السلف التى تسمى بالعرف ، والاقتداء الأعمى بأصحاب السـلطة الدينية ، والخوف المهين لأصحاب السـلطة الدنيوية ..

والاسلام لا يقبـل من المسلم أن يلغى عقله ليجرى على سنة آبائه وأجداده ولا يقبل منه أن يلغى عقله خنوعا لمن يسخره باسم الدين فى غير ما يرضى العقل والدين ولا يقبل منه أن يلغى عقله رهبة من بطش الأقوياء وطغيان الأشداء ، ولا يكلفه فى أمر من هذه الأمور شططا لا يقدر عليه اذ القرآن الكريم يكرر فى غير موضع ان الله لايكلف نفسا ما لاطاقة لها به ، ولا يطلب من خلقه غير ما يستطيعون ..

***

« لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا » . (سورة البقرة)

***

« لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » .

(سورة الانعام والاعراف والمؤمنون)

« لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ
رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا
حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ » .

(سورة البقرة)

***

وما من أحد يهتدى بعقله لايسعه أن يرى الصواب وأن يكف عن الخطأ . فاذا قسر على نبذ الصواب واقتراف الخطأ ففى وسعه أن ينجو بنفسه من القسر حيث كان ، وفى وسعه اذا حيل بينه وبين النجاة أن يلقى الضرر الذى يجنيه عليه من يهدر كرامته ويقتل ضميره . فذلك لاريب أهون الضررين فى هذه الحال ، ولا معنى للدين ولا للخلق اذا جاز للناس أن يخشوا ضررا يصيب أجسامهم ولا يخشوا ضررا يصيبهم فى أرواحهم وضمائرهم ، وينزل بحياتهم الباقية الى ما دون الحياة التى ليس لها بقاء وليس فيها شرف ولا مروءة ..

***

وهذه الموانع كلها ــ موانع العرف والقدرة العمياء والخوف الذليل ــ انما تقوم وتبقى قائمة ما هان على الانسان أن يعيش بغير عقل يرجع اليه فى أكرم مطالبه « الانسانية » وهو صلاح ضميره . ولكنها تزول على الأثر يوم يرجع الى عقله أمام كل عقبة من عقباتها ، وقد يشق عليه أن يذلل تلك العقبات أو يناجزها ، ولكنه حق العقل عليه ولابد من حق تهون من أجله المشقة ، لأنها أهون من سلب الانسان فضيلته العليا وارتكانه الى حياة لا تعقل أو حياة تعقل ولكنها تؤثر الحطة على علمها بما هو أرفع منها ..

ان حق العقل فى الاسلام يقاس بكل قوة من قوى تلك الموانع التى ترصد له وتصده عن طريقه ، وأولها وأقواها فى صدر الاسلام قوة العرف أو عبادة السلف ، لأن العرف فى الجاهلية بلغ مبلغ العبادة فى المهابة والرعاية وتسخير النفوس لحكمه بما يفرضه عليها من العادات ، وما هى فى الواقع

الا ضرب من العبادات يملك الانسان فى جميع أوقاته وعلاقاته ، حيث تتراخى عنه أحيانا سطوة العبادات الدينية ، ولعل العبادات الدينية لم يكن لها من سطوة فى عصور الجاهلية وما شابهها الا لأنها تستمد تلك السطوة من العادات ..

كانت الدعوة الاسلامية تثير أهل الجاهلية وتحنقهم أشــد الحنق على الرسول القائم بها صلوات الله عليه . وأشد ما كان يحنقهم من دعواته انه يسفه بها أحلام الآباء والأجداد . فقلما كانوا يقولون فى مقام الغضب منه والتحريض عليه : انه يسفه أحلامنا ويستخف بعقولنا ، وانما كان غضبهم كله منه وتحريضهم كله عليه اذ يقولون عنه انه يســفه أحلام آبائنــا ويستخف بعقول أسلافنا ، ويقول عن أصول النسب التى يفخرون بها انها كانت على ضلالة وكانت لا تعقل ما تصنع من أمور الدين ..

والاســلام حين يأبى على الانسان أن يعنو بعقله كله لهذه السطوة الجائحة انما يعطى العقــل حقه فى مقاومتها ولا يكتفى بأن يفرض عليه واجب المقاومة ، وانما يمده بالحجة التى تعينه عليها حيث لا حجة له بين يديها . فهو يكلفه ويعينه وهو يثيره ويضع فى يده السلاح الذى يشحذه فى ثورته ، فهو نصير معين يلقى العبء ويعطى المدد الذى يعينه عليه ..

وحين يقول الاسلام للانسان .. يجب عليك أن تفتح عينك ولا تنقاد لما يوبقك مغمض العينين ، فكأنه يقول له .. يحق لك أن تنظر فى شأنك ، بل فى أكبر شأن من شئون حياتك ، ولا يحق لآبائك أن يجعلوك ضحية مستسلمة للجهالة التى درجوا عليها ..

وان الاسلام ليأبى على المرء أن يحيل أعذاره على آبائه وأجداده ، كما يأبى له أن تحال عليه الذنوب والخطايا من أولئك الآباء والأجداد ، وانه لينعى على الذين يستمعون الخطاب أن يعفوا أنفسهم من مؤنة العقل لأنهم ورثوا من آبائهم وأجدادهم عقيدة لا عقل فيها ..

***

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ

آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَايَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) . .
(سورة البقرة)

***

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ) .
(سورة المائدة)

***

(وَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قلْ إِنَّ اللهَ لَا يأْمُرُ بِالفَحْشَاء أَتقُولُونَ عَلَى اللهِ مَالَاتَعلَمُونَ) (سورة الاعراف)

***

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ . قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ . قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ . قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) .
(سورة الشعراء)

***

(إِنَّهمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ . فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ)
(سورة الصافات)

***

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ). (سورة التوبة)

***

(وَ كَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِير إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ . قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)
(سورة الزخرف)

ولقد كان هذا حق العقل الذى استمده من الاسلام فى مواجهة العرف أو عبادة السلف ، وكانت للعرف فى صدر الاسلام قوة أكبر من قوة العبادة وقوة الحكومة ، ويستوى أن نقول ان العقل أحق بالاستقلال أمام هاتين القوتين ، وأن نقول ان الاستقلال أمامهما أوجب عليه من الاستقلال أمام العرف أو عبادة السلف ، ولعلنا لا نعدو الصواب اذا عممنا القول على جميع العصور ولم نقصره على العصر الجاهلى الذى كانت فيه عبادة السلف أظلم للناس من سلطان رجال الدين وسلطان الحاكم بأمره ، فان حرية العقيدة قد يرجع الأمر فيها الى من يتولون أمرها من القائمين عليها فى المعابد والمحاريب أو من القائمين عليها فى ولاية الشعائر والحدود . فهنا مجال الحق الذى يتمسك به العقل حيث تدعو الحاجة الى ذلك الحق ، أو حيث يستوجبه الخطر فى أمر الاعتقاد خاصة دون ما عداه من أمور يعمها العرف الشائع أو تعمها عبادة الأسلاف ..

وأيا كان الرأى فى تفاوت القوى التى يخنع لها العقل وتذهله عن حقه فى الحرية أو عن واجبه فى التمييز والنهوض بالتبعة ، فالأمر الذى لا مرية فيه ان التحذير من فساد الكهان والأحبار خليق أن يناسب الخطر الذى يخشى من فسادهم أينما كان وكثيرا ما يكون ..

وقد بدأ الاسلام بالتحذير الشامل من هذا الفساد فأسقط الكهانة وأبطل سلطان رجال الدين على الضمائر ونفى عنهم القدرة على التحريم والتحليل والادانة والغفران ..

ثم نبه الى سيئاتهم وعاقبة الذين استسلموا لخديعتهم وكثير منهم خادعون ..

***

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

(سوره التوبة)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

(سورة التوبة)

***

وحرص القرآن على أن يعم القول من لهم سلطان دينى كالأحبار ومن ليس لهم هذا السلطان ولكنهم يستمدون من السمعة الدينية نصيبا من السلطان لا يقل عن نصيب الأحبار ..

وهـذا على تنبيه القرآن الكريم الى ما كان من فضل الصالحين من الرهبان والقسيسين على أممهم حيث جاء فيه من سورة المائدة :

« وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ »

وما نحسب ان التفرقة بين الفريقين تعسر على عارف ولا جاهل ، فما من لبس هنالك بين أناس لايستكبرون ولا يهيمون بالمـال يأكلون أينما وجدوا الحلال والحرام منه ، وبين أناس يتصدون للجاه والخيلاء ويأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سواء السبيل ..

***

ويكاد الذين كتبوا فى تاريخ العقائد يتفقون على تهوين خطر الحكم المستبد على الضمير الانسانى بالقياس الى خطر العرف أو خطر الخديعة من رؤساء الأديان . لأن الحكم المستبد يتسلط على الضمير من خارجه ولا يستهويه من باطنه كما يستهويه حب السلف أو الاسترسال مع القدوة الخادعة من قبل رؤساء الدين . فهو مشكلة مكان لا مشكلة عقـل أو ضمير ، اما أن ينفضه الانسان عنه فى مكانه أو يلوذ منه بمكان أمين ، وكثيرا ما يكون الحكم المستبد حافزا للضمير الى المقاومة محرضا للعقل

على الرفض والانكار ، وأكبر ما يخشى منه أن يؤدى الى تشبث العناد ، لأن هذا التشبث خطر على التفكير كخطر الاستهواء والتسليم ، ولايزال الاستبداد على كل حال قهرا للعقل بغير ارادته يترك له الارادة طليقة للمقاومة أو الحيلة أو الخضوع ، فهو غير الانقياد للضلال ايثارا له ومحبة للمضللين ..

فمن هنا كان حق العقل فى مقاومته ــ بحكم الاسلام ــ كحقه فى مقاومة سلطان العرف وسلطان الأحبار ، ويزيد عليه انه يلوم المسلم على الخضوع فى مكانه اذا كان فى وسعه أن يرحل منه الى مكان بعيد من سلطانه ..

(قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ، قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ . قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا) .

(سورة النساء)

ونحن مع العقل فى الاسلام حين نذكر ان الاسلام يأمره باستقلال النظر فى مواجهة السلف ومواجهة الأحبار ومواجهة الاستبداد ، ثم يكون هو هو الدين الذى امتاز بين الأديان بوصاياه الكثيرة فى توقير الآباء والرجوع الى أهل الذكر وتمحيض الطاعة لولاة الأمور ..

فاذا أمر العقلاء فهكذا يؤمرون ، وغير ذلك من الأوامر انما يكون للآلات التى تعمل على وتيرة واحدة فى أيدى من يحركونها ويديرونها أو يكون للخلائق البكماء التى تقاد أو تساق ولا رأى لها فى مقادة أو مساق

انما يكون أمر العقلاء أن يؤمروا بالتمييز بين مختلف الأحوال فلا يقال لهم انكم ترفضون كل الرفض أو تقبلون كل القبول ، ولا فرق عندهم بين مرفوض ومرفوض ولا بين مقبول ومقبول ..

عليكم أن تبروا بالآباء ، ولكن البر معهم غير الضلال معهم على غير بصيرة ، والعقلاء هم الذين يعرفون موضع هذا وموضع ذاك ..

وعليكم أن تسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون ، ولكن أهل الذكر الذين لاينتفعون بذكرهم لا ترجى منهم التذكرة لغيرهم ، ومن لم يكن من

أهل الذكر فليس بعسير عليه أن يكون من المميزين بين الصادقين منهم والمنافقين ، وبين سيرة الرشد والاستقامة وسيرة الغواية والاعوجاج ..

وعليكم أن تطيعوا ولاة الأمر منكم ، ولكن لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ولا خير فى فتنة يضرمها العصيان على غير بصيرة ، ومن لم تكن له قدرة على الطاعة ولم يكن فى عصيانه أمان من الفتنة الطامة فله فى الهجرة متسع يأوى اليه ما استطاع ..

وقوام الأمر كله ، بل قوام جميع الأمور فى جميع التكاليف ان النفس تحاسب على ما تستطيع ولا تؤمر بغير ما تطيق ، ومن وراء ذلك تبعة الأمة كلها حين تؤخذ الأمة بوزر الأمة ولا ينفرد منها كل فرد بمصيره مع مصائر الأمم بحذافيرها ، فلا مناص من هذه الوحدة فى حساب الأمم ، ولا خير للأفراد — مع تطاول الزمن — فى عيشة يقف فيها خير الفرد وشره عند بابه ولا يحسب فيها حساب شركائه فى بيئته . فلا تناقض بين أمر الفرد بالعقل واشتراكه فى تبعة الأمر الذى يعم الجميع ولا يخص أحدا من الآحـاد . ولكن الأمم تخاطب بتحكيم العقـل كما يخاطب به أفرادها متفرقين ، ولا تحاسب الأمم الا على سنة الأمم فى أطوار الاجتماع ..

وصفوة القول ان الاسلام لايعذر العقل الذى ينزل عن حق الانسان رهبة للقوة أو استسلاما للخديعة ، ولا حدود لذلك الا حدود الطاقة البشرية ، ولكنها الطاقة البشرية عامة كما تقوم بها الأمم ، ولا ينتهى أمرها بما يكون للفرد من طاقة لا تتعداه ..

المنطق

المنطق علم يجمع الأصـول والقواعد التى يستعان بها على تصحيح النظر والتمييز . وحكم الاسلام فيه ــ بهذه المثابة ــ واضح لايجوز فيه الخلاف ، لأن القرآن الكريم صريح فى مطالبة الانسان بالنظر والتمييز ومحاسبته على تعطيل عقله وضلال تفكيره ..

بيد اننا نحتاج الى التفرقة بين شيئين مختلفين فى هذا الموضوع قبل أن نعرض لفتاوى الفقهاء فيه بتحريم أو تحليل ، وهما المنطق والجـدل أو الخطـاب الاقناعى ، فانهما ليختلفان ويتباعدان حتى ينتهى الاختـلاف والتباعد بهما الى الطرفين النقيضين ..

فالمنطق يبحث عن الحقيقة من طريق النظر المستقيم والتمييز الصحيح ..

والجدل يبحث عن الغلبة والالزام بالحجة ، قد يرمى الى الكسب والدفاع عن مصلحة مطلوبة ، وقد يتحرى مجرد المسابقة للفوز على الخصم وافحامه فى مجال المناقضة واللجاج ..

وقد ظهر المنطق والجدل بين اليونان الأقدمين فأكبروا المنطق ونظروا الى الجدل نظرة اشتباه وانكار ، وهو الذى سموه ــ بعد ــ بالسفسطة أو ترفقوا فسموه علم البراهين الخطابية Rhetoric وحسبوه صناعة لازمة فى معرض الاقناع والتأثير ..

وكان اسم « السفسطة » فى نشأته الأولى معظما مبجلا بين الحكماء وتلاميذهم وجمهرة المعنيين بالحكمة والمعرفة ، وكان اسم «السوفيست» أعظم شأنا من اسم الفيلسوف .. لأن السوفيست ينتمى الى ربة الحكمة « صوفية » فهو الحكيم الذى ألهمته تلك الربة وفرغ من مؤونة المعرفة . فلما ظهر الحكيم « فيثاغوراس » استكبر هذه الدعوى وتواضع فسمى نفسه فيلسوفا أى محبا للحكمة يطلبها ولايزعم أنه وصل اليها ، ثم نجم بعد

قرن من عصر فيثاغوراس ناجم من فتنـــة الحذلقة باسم الحكمة يقودها بروتاغوراس Protagoras الأبديرى فراح يتحدى من ينكر عليه العلم أن يسأله فيما يشاء ، وهو كفيل بالاجابة عليه بلا وقاء ، وعدل عن اسم الفيلسوف الذى يقنع بمحبة الحكمة الى اسم « السوفيست » مرة أخرى لزعمه انه ملك الحكمة واستوفاها ، وغلبت كلمة « السفسطة » من هنا على كل من يدعى هذه الدعوى ويتحذلق هذه الحذلقة ، وكثر الاشتغال بالبرهان فى المنازعات القضائية والمناقشات السياسية فانفصلت الصناعتان باتفاق المعلمين والمتعلمين ، وصرّح أصحاب كل صناعة بما يريدونه من عملهم وتعليمهم وأصبح من المفهوم المتفــاهم عليه ان المنطق بحث عن الحقيقة وان الجدل بحث عن المصلحة أو الرغبة المتنازع عليها . وتصدى لتعليم الجـــدل أو البراهين الخطابية أناس يقصـــدهم المتعلمون ليعرفوا كيف ينتصرون على خصومهم فى مجال المنازعة والملاحاة ويضع الآباء أبناءهم فى كفالتهم ليدربوهم على صناعة التقاضى والتأثير فى سبيل الاقناع بالحجة أيا كان حظها من الحقيقة ..

ومما يحكى عن أستاذ سفسطائى انه اتفق مع تلميذ له على أن يخرجه للدفاع فى القضاء والمنازعات العامة خلال عامين بأجر متفق عليه . فلما انتهى العامان طلب الأستاذ أجره وقال التلميذ : بل أناقشك فى هذا الأجر هل تستحقه بعملك أو تطلبه بغير حق . فان أقنعتك بأنك لا تستحقه فلا حق لك فيه باعترافك وسكوتك حجة على هذا الاعتراف . وان لم أقنعك فلا حق لك فيه لأنك لم تعلمنى كيف أقيم البرهان على دعواى ..

وكان جواب الأستاذ ـــ كمثال تلميذه ـــ مثلا للبرهان المطلوب فى هذه الصناعة . فقال له : اننى أقبل أن أناقشك ولكنى على غير النتيجة التى خلصت اليها . أناقشك فى حقى فتعطيه مرة اذا ثبت عليك وتعطيه مرتين اذا لم أثبته أمامك لأننى علمت تلميـــذا ما يغلب به أستاذه فى صناعة البرهان ، مع اتفاقهما أولا على الحق الذى يتنازعانه فى النهاية ..

وبلغ من التفاهم على الفصل بين البرهان والحقيقة فى صنـــاعة الجدل

انهم أصبحوا يقولون عن الحجة انها حجة خطابية أى تقنع ولا يشترط فيها أن تدل على الحقيقة ، ويقولون عن السؤال انه سؤال خطابى أى لايراد منه جواب معلوم عن توجيه السؤال كقول الخطيب للسامعين فى معرض الزجر والاستثارة .. هل أنتم وطنيون ؟ هل أنتم سامعون ؟ الى أمثال هذه الأسئلة التى يسألها المتكلم ليؤثر بها على مستمعيه لا لأنه ينتظر الجواب عليها ..

وصرح أهل هذه الصناعة بأن السؤال الخطابى قد ينقض الحقيقة اذا ورد فى صيغة الخطاب دون أن يزيد فيها حرفا أو كلمة . ومن أمثلتهم على ذلك ان مجرما قضى عليه أن يقف فى جمع حافل ويشهد على نفسه بالسرقة فينادى فيهم : أنا مجرم .. ويكررها ثلاث مرات ..

فلما وقف فى الجمع الحافل نادى كما أمروه ولكن بصيغة الخطاب ، فطفق يقول كأنه يستفهم ويستنكر : أيها الناس : أنا مجرم ؟ أنا مجرم أيها الناس ؟ .. فكان فى صيغة السؤال الخطابية انكار للاعتراف الذى أرادوه عليه ، دون أن يزيد حرفا أو كلمة فى عبارة الاعتراف ..

هذه الصناعة ــ صناعة الجــدل ــ ليست فى شىء من المنطق القويم المطلوب للبحث عن الحقيقة ، ولكنها صناعة يتعلمها طالبها وهو عالم انه ينشد الغلبة على خصومه فى المناقشة بالحق أو بالباطل ، فان لم يتعلمها عامدا هذا العمد فقد ينساق اليها بطبيعة الجدل وشــهوة المغالبة فيؤثر المغالطة على المصارحة ويصر على المكابرة مجهلة بالحقيقة أو مكابرة فيها ..

وما من أمة فتح فيها باب الجدل وغلبت فيها شــهواته ثم سلمت من جرائرها ، سواء كانت هذه الآفة مما ينجم عن تعليم الصناعة أو كانت مما تخلقه اللجاجة والتمادى فى الملاحاة والبغضاء ..

وقد ضرب المثل بالجدل « البيزنطى » فى طول اللجاجة وسوء العاقبة وقلة الجدوى لطلاب الحقيقة والصلاح ، ولكن البيزنطيين لم يكونوا بدعا فى هذه الآفة ولم ينفردوا بالجدل على غير طائل كلما فتحت أبوابه على مصطلحات المنطق أو على غير مصطلح مفهوم غير اللدد والعناد ، فان بنى

اسرائيل قد سبقوا البيزنطيين الى أمثال هـذه المجادلات الخاوية الا من الباطل والشحناء ، وجاء السيد المسيح اليهم فوجـد فيهم طائفة الكتبة والفريسيين لا عمل لها غير اختلاق الحيل والشراك لاقتناص النـاس بمغالطات الألفاظ وألاعيب الحذلقة والتمويه . وكان لتلك الآفة صرعاها بعد البيزنطيين كما كان لها صرعاها قبلهم بين بنى اسرائيل ، فكانت آفة الجدل على أبنـاء القرون الوسطى من المشتغلين بالفلسـفة والمنطق أو بالتفسيرات الدينية والمهاترات المذهبية أشد عليهم من آفة الجهل والجمود على التقاليد ..

***

ويؤخذ من أخبار الأمم التى امتحنت بالمنازعات الجدلية ان هذه الآفة مرض اجتماعى تتشابه أعراضه فى الأمم ولا تنحصر فى اليونان أو بنى اسرائيل ، فلا يزال الجدل حيث كان مقترنا بأعراضه الوبيلة ، وأشهرها وأوبلها ثلاثة .. وهى اغراء الناس بالمماحكة بالقشور دون الجوهر واللباب من حقائق الأمور ، واثارة البغضاء والشحناء على غير طائل ولعا بالغلبة والاستعلاء بدعوى العلم والصواب ، واشاعة الخلاف بين الآراء جماعة بعد جماعة الى غير نهاية يقف عندها ذلك الخلاف . فتنقسم الأمة الى شيع وتنقسم الشيعة الى فرق ، وتنقسم الفرقة الى شعب وفروع حتى لا تبقى فئة واحدة على رأى واحد وان قلت فى العدد وصغرت فى منزلة التفكير..

ولما انتقلت هذه الآفة الى الأمم الاسلامية فشت فيها هـذه الأعراض جميعا ولمس الخاصة والعامة أضرارها فى بيئات العلم والدين ، وتشاءم بها المسلمون أشد من تشاؤم اليونان بالسفسطائيين والمسيحيين الأولين بالكتبة والفريسيين . لأن مجادلات السفسطة والتأويل نجمت فى اليونان وبنى اسرائيل من بين أنفسهم ولم تنتقل اليهم من الأجانب الغرباء عنهم . أما فتنة الجـدل ومصطلحاته الكلامية فقد انتقلت الى المسلمين من أمم غريبة على أيدى التراجمة الدخلاء فتسربت الى الأذهان شبهات كثيرة من أمرها ووهم بعض الخاصة ـ فضلا عن العامة ـ انها مكيدة مبيتة للأمة

الاسلامية تواطأ عليها أعداؤها من خارجها وداخلها ، وتداولت الألسنة قصصا عن نقل هذه العلوم الدخيلة تشبه الأساطير ونوادر الرواة والمتخيلين ، ومن أمثلة هذه الشوائع المترددة ما رواه جلال الدين السيوطى عن الشيخ نصر المقدسى من كتابه « الحجة فى تارك المحجة » حيث يقول : « ان بنى العباس قامت دولتهم على الفرس . وكانت الرياسة فيهم وفى قلوب أكثر الرؤساء منهم الكفر والبغض للعرب ودولة الاسلام ، فأحدثوا فى الاسلام الحوادث التى تؤذن بهلاك الاسلام ولولا أن الله تبارك وتعالى وعد نبيه صلى الله عليه وسلم ان ملته وأهلها هم الظاهرون ليوم القيامة لأبطلوا الاسلام ، ولكنهم قد ثلموه وعوّروا أركانه والله ينجز وعده ان شاء الله » ..

ثم يقول : « فأول الحوادث التى أحدثوها اخراج كتب اليونانية الى أرض الاسلام فترجمت بالعربية وشاعت فى آيدى المسلمين . وسبب خروجها من أرض الروم الى بلاد الاسلام يحيى بن خالد بن برمك . وذلك ان كتب اليونانية كانت ببلد الروم وكان ملك الروم خاف على الروم ان نظروا فى كتب اليونانية أن يتركوا دين النصرانية ويرجعوا الى دين اليونانية وتتشتت كلمتهم وتتفرق جماعتهم ، فجمع الكتب فى موضع وبنى عليها بناء مطمئنا بالحجر والجص حتى لايوصل اليها ، فلما أفضت رياسة بنى العباس الى يحيى بن خالد ، وكان زنديقا ، بلغه خبر الكتب التى فى البناء ببلد الروم فصانع ملك الروم الذى كان فى وقته بالهدايا ولا يلتمس منه حاجة ، فلما أكثر عليه جمع الملك بطارقته وقال لهم ان هذا الرجل خادم العربى أكثر علىّ من هداياه ولا يطلب منى حاجة وما أراه الا يلتمس حاجة وأخاف أن تكون حاجته تشق علىّ . فلما جاءه رسول يحيى قال له : قل لصاحبك انكانت له حاجة فليذكرها . فلما أخبر الرسول يحيى رده اليه وقال له : حاجتى الكتب التى تحت البناء يرسلها الىّ أخرج منها بعض ما أحتاج اليه وأردها اليه . فلما قرأ الرومى كتابه استطار فرحا وجمع البطارقة والأساقفة والرهبان وقال لهم : قد كنت

ذكرت لكم عن خادم العربى انه لايخلو عن حاجة وقد أفصح بحاجته وهى أخف الحوائج علىّ . وقد رأيت رأيا فاسمعوه فان رضيتموه أمضيته ، وان رأيتم خلافه تشاورنا فى ذلك حتى تتفق كلمتنا . فقالوا وما هو ؟ .. قال حاجته الكتب اليونانية يستخرج منها ما يحب ويردها . فقالوا : فما رأيك ؟ .. قال : قد علمت انه ما بنى عليها من كان قبلنا الا انه خاف ان وقعت فى أيدى النصارى وقرأوها كانت سببا لهلاك دينهم وتبديد جماعتهم ، وأنا أرى أن أبعث بها اليه وأسأله ألا يردها ، يبتلون بها ونسلم نحن من شرها . فانى لا آمن أن يكون بعدى من يجترىء على اخراجها الى الناس فيقعوا فيما خيف عليهم . فقالوا : نعم الرأى رأيت أيها الملك فأمضه ... »

***

وهذه قصة تصح فى التاريخ أو لا تصح فلا شبهة على الخالين فى سوء الأثر الذى أصيبت به الأمة الاسلامية من آفة الجدل باسم المنطق المزيف ، فانها أشبه شىء بالنقمة التى يصبها العدو على عدوه أو بالمكيدة التى يدسها عليه ليشغله بالشقاق والشتات عن مهام دنياه ومطالب دينه ، وهذه المحنة هى التى أرادها من أرادها بالحظر والتحريم من علماء المسلمين . فمنعوا الاشتغال بالجدل سدا للذرائع واتقاء للفرقة التى تبلبل الأذهان وتفسد القلوب وتجر الى هذه المشكلات أهل الفضول والبطالة فيوبقون معهم طوائف الأبرياء من أهل الجد والاستقامة الذين لا طاقة لهم بالمنطق ولا بالجدال ..

وكان دخول مصطلحات اليونان على أيدى أناس يجهلون العربية ويعجزون عن فهم ألفاظ القرآن ومعانيه بابا آخر من أبواب الخلط والغلط فى تطبيق البرهان والقياس ..

فمن كان من أصحاب المنطق أهلا لفهمه ومعرفة وجوهه لم يكن أهلا لتطبيقها على معانى القرآن وعباراته لجهله بذوق اللغة وأسرار بلاغتها . ومن كان يعرف اللغة لم يكن من ذوى المعرفة بالبرهان والقياس ، وشر

من هؤلاء من يجهلون اللغة كما يجهلون المنطق ثم يهرفون بما لايعرفون في شئون ترتبط بها سلامة المجتمع وطمأنينة الخواطر ، وشر من هؤلاء أجمعين من يعرفون اللغة والمنطق ويسيئون النية عمدا لازعاج الخواطر المطمئنة وتقويض المجتمع السليم ..

وكل ما ورد عن علماء الاسلام الذين حرموا الجدل فانما ينصرف الى منع هذه اللجاجة التى لمسوا شرورها وتحققوا من جريرتها ولم يلمسوا معها منفعة تتحقق بالجدل ولا تتحقق بغيره . فما يغير قوما من الأقوام خطب أفدح عليهم من اشتغالهم بالجدل وتركهم العمـل كما قال الامام الاوزاعى ، وأسلم المواقف عند ذوى البصر بالدين اذا احتـدم الخصام وشاع المراء والاتهام أن يصاب المرء ولا يصيب وأن يتجنب الخصومة أو يتجنب فيها كل قول مريب . وجمـاع ذلك شعر حسن يتناقلونه عن مصعب بن عبد الله الزبيرى المتوفى قبيل منتصف القرن الثالث يقول فيه :

أأقعد بعد ما رجفت عظامى ... وكان الموت أقرب ما يلينى
أخاصم كل معترض خصيم ... وأجعل دينه غرضـا لدينى
فأترك ما علمت لرأى غيرى ... وليس الرأى كالعلم اليقين
وما أنا والخصـومة وهى لبس ... تصرف فى الشـمال وفى اليمين
وقد سنت لنا سنن قوام ... يلحن بكل فج أو دجـين
وكان الحق ليس به خفاء ... أغر كغـرة الفلـق المبـين
وما عوض لنا منهاج « جهم » ... بمنهـاج ابن آمنـة الأمين
فأما ما علمت فقـد كفانى ... وأما ما جهـلت فجنبـونى
فلست بمكفر أحدا يصـلى ... ولم أجرمكم أن تـكفرونى
وكنـّا اخـوة نرمى جميعـا ... فنـرمى كل مرتاب ظنـين
فأوشك أن يخر عماد بيت ... وينقطـع القرين عن القرين

وعلى كثرة الفقهاء الذين عرضوا لهذا الموضوع لا تجد واحدا منهم قصـد بالمنع أو التحريم شيئا غير هـذا الجدل العقام الذى يمزق وحدة الجماعة ويصرف العقل عن الفهم ويأتى الى المعنى الواضح فيغمضه ولا

يتفق له يوما أن يأتى الى الغامض فيجلوه ويقربه لمن خفى عليه . فهم فى الواقع انما ينقذون العقل من ضلالة تغشاه فتحجب عنه الحقيقة ، ويعيذونه أن يخبط فى النهار المبين خبط عشواء ..

وأكبر الفقهاء الذين أفاضوا فى بحث هذه المسألة ثلاثة من الأئمة المجتهدين هم : الغزالى ، وابن تيمية ، وجلال الدين السيوطى ، وآخرهم جلال الدين يتابع الامامين السابقين ويقتدى بهما فى علوم الرياضة والفلسفة ، ويقول عن نفسه انه ليس من أهل هذه العلوم كما قال فى كتابه حسن المحاضرة : «... وأما علم الحساب فهو أعسر شىء علىّ وأبعد عن ذهنى واذا نظرت فى مسألة تتعلق به فكأنما جبلا أحمله ..

واذا أحيل البحث الى الامامين الغزالى ، وابن تيمية ، فنحن بين يدى حجتين من حجج المنطق لايسبقهما فيه سابق من المتقدمين أو المتأخرين ، ومناقشتهما للمنطق مناقشة تصحيح وتنقيح وليست مناقشة هدم للأسس التى يقوم عليها أو تفنيد للأصول التى يرجع اليها . فهما يريدان اثبات الخطأ على من يسيئون تطبيق القياس والبرهان ولا يريدان محو القياس والبرهان فى علم من علوم الدين أو الدنيا التى جاءت من اليونان أو نشأت بين المسلمين ..

فالغزالى فى مفتتح الجزء الأول من كتابه «المستصفى» يذكر من شروط العالم المجتهد غير المقلد أن يحيط بعلم النظر ويحسن ايراد البرهان واجراء القياس ، وكان ينعى على العلماء أنهم لايشتغلون بتحصيل هذا العلم فقال من كلامه على أحاصيل الفلسفة فى كتابه المنقذ من الضلال : « انى ابتدأت بعد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة وعلمت يقينا انه لايقف على فساد نوع من العلوم من لايقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوى أعلمهم فى أصل العلم ثم يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلعه على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة ، فاذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقا . ولم أر أحدا من علماء الاسلام صرف همته وعنايته الى ذلك ، ولم يكن فى كتب المتكلمين من كلامهم حيث اشتغلوا بالرد

عليهم الا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد لا يظن الاغترار بها بغافل عامى فضلا عمن يدعى حقائق العلوم . فعلمت أن رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه رمى فى عماية . فشمرت عن ساق الجد فى تحصيل ذلك العلم بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ ومعلم وأقبلت على ذلك فى أوقات فراغى من التدريس » ..

وبعد دراسة المنطق رأى الغزالى ان خطأ المناطقة انما يعتريهم من ناحية التطبيق ، ولا عيب فى أصول النظر على استقامة فهمها وصدق الرغبة فى المعرفة الصحيحة ومن ذلك قوله فى كتاب مقاصـــد الفلاســـفة : « أما المنطقيات فأكثرها على منهج الصواب ، والخطأ نادر فيها وانما يخالفون أهل الحق فيها بالاصطلاحات والايرادات دون المعانى والمقاصد » ..

ومن كلامه فى فاتحة كتاب محك النظر: « انك ان التمست شرط القياس الصحيح والحد الصحيح والتنبيه على منارات الغلط فيها وفقت للجمع بين الأمرين فانها رباط العلوم كلها » ..

ويقول فى ختام كتابه الميزان : « لو لم يكن فى مجارى هذه الكلمات الا ما يشكك فى اعتقـــادك الموروث لتنتدب للقلب وناهيك به نفعا اذ الشكوك هى الموصلة للحق فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال نعوذ بالله من ذلك » ..

وهو فى جميع كتبه يحرم التقليد على من يستطيع الدرس والاهتداء بالتفكير السليم الى حقائق الدين ، وسيرته كما روى عن نفسه مثل لما ينبغى لطالب المعرفة أن يتحراه من البحث عن الحقيقة أينما وجدها أو قاده السعى اليها . قال فى مقدمة المنقذ من الضلال : « ولم أزل فى عنفوان شبابى منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الآن ــ وقد أناف السن على الخمسين ــ اقتحم لجة هــذا البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة وأتهجم على كل مشكلة وأقتحم كل ورطة وأتفحص عقيدة كل فرقة وأستكشف أسرار

مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا أغادر باطنيا الا وأحب أن أطلع على بطانته ولا ظاهرا الا وأريد أن اعلم حاصل ظهارته ولا فلسفيا الا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ولا متكلما الا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ولا صوفيا الا وأحرص على العثور على سر صفوته ولا متعبدا الا وأرصد ما يرجع اليه حاصل عبادته ولا زنديقا متعطلا الا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته . وقد كان التعطش الى ادراك حقائق الأمور « دأبى وديدنى من أول أمرى وريعان عمرى غريزة وفطرة من الله تعالى ... »

فالعقل عند الامام الغزالى هو العقل فى شرعة الاسلام ، كلاهما عقل يبتغى الحقيقة حيث كانت ولا يحجم عن المعرفة حيث أصابها ولا يقيم فوقه أو بين يديه بابا مغلقا دون قبس من النور يريه ما لم يكن رآه أو يزيده بصيرة بما رآه . وانما تناول بالتحريم عملا ليس من أعمال العقل ولا هو مما تسيغه العقول الرشيدة ، وهو تعريض العامى المعقد للمشكلات التى لا يدركها ولا يتوفر على درسها وادراكها ، وكل ما يجنيه من يعرضه لها أن يسلبه طمأنينة التقليد ولا يعوضه منها غير القلق والاضطراب وسوء الطوية . وليس فى ابتلاء العامى المقلد بهذه المحنة شيء من العقل ولا فى تجنيبه مضرتها ووبال عقباها مخالفة للعقل أو حجر عليه ..

ويخشى الغزالى فتنة الجدل على الثرائرة المتحذلقين كما يخشاها على العامة المقلدين . فهم كالعامة المقلدين أو شر منهم فى مصابهم بمضار الجدل وعجزهم عن الاستفادة من خوض مزالقه وغواياته . قال فى الجزء الأول من الاحياء : « وأما المبتدع بعد أن تعلم من الجدل ولو شيئا يسيرا فقل ما ينفع معه الكلام وقدر عنده جوابا عنه . فانك ان أفحمته لم يترك مذهبه وأحال بالقصور على نفسه وقد رأت عند غيره جواب ما هو عاجز عنه ، وانما أنت ملبس بقوة المجادلة . وأما العامى اذا صرف عن الحق بنوع جدل فيمكن أن يرد اليه بمثله قبل أن يشتد التعصب للأهواء . فاذا اشتد تعصبهم وقع اليأس منهم ... »

وموقف الامام ابن تيمية من المنطق والجدل شبيه بموقف الامام الغزالى ، ولكنه يرى ان المنطق سليقة فى العقل الانسانى يستغنى عنه الذكى ولا ينتفع به البليد اذا جاء على غير سليقة واستعداد . ومن كان هذا رأيه فى المنطق فمحال أن يقال عنه انه يلغيه ويحرمه لأنه لايلغى الفطرة ولا يحرم تركيبا أودعه الله نفوس خلقه ، ومن نظر فى كتب ابن تيمية التى ناقض بها أدعياء المنطق وعشاق الجدل علم انه كان بصدد انشاء منطق صحيح وهداية الى تطبيق أصول المنطق القويم ، ولم يكن متصديا لهدم المنطق من أساسه على جميع وجوهه وفى جميع تطبيقاته . فهو يستخدم قضايا المنطق ليبطل دعوى المناطقة الذين يضعون الحدود فى غير مواضعها ويقيسون الأشباه والنقائض بغير قياسها ويهدرون الحقائق فى سبيل المصطلحات والألفاظ بغير دراية لمعناها . ومن تخطئته لهم فى فهم «الحد» تبين انه لايبطل الحد ولكنه يبطل قول القائلين ان التصور موقوف عليه ، وكلامه عن الحد مثل لكلامه فى القياس والقضية وسائر المصطلحات المنطقية ، وفيه يقول كما لخصه السيوطى من كتاب « نصيحة أهل الايمان فى الرد على منطق اليونان » ..

« قولهم ان التصور لاينال الا بالحد » الكلام عليه من وجوه ..

« لاريب ان النافى عليه الدليل كالمثبت ، والقضية سلبية أو ايجابية اذا لم تكن بديهية لابد لها من دليل . وأما السلب بلا علم فهو قول بلا علم . فقولهم لا تحصل التصورات الا بالحد قضية سالبة وليست بديهية . فمن أين لهم ذلك ؟ واذا كان هذا قولا بلا علم وهو أول ما أسسوه فكيف القول بلا علم أساسا لميزان العلم ولما يزعمون انها آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن أن يزل فى فكره ..

« الثانى » أن يقال : الحد يراد به نفس المحدود وليس مرادهم هنا ، ويراد به القول الدال على ماهية المحدود وهو مرادهم هنا ، وهو تفصيل عليه الاسم بالاجمال — فيقال : اذا كان الحد قول الحاد فالحاد اما أن يكون عرف المحدود بحد أو بغير حد . فان كان الأول فالكلام فى الحد الثانى

كالكلام فى الأول وهو مستلزم للدور أو التسلل ، وان كان الثانى بطل سلبهم ، وهو قولهم انه لايعرف الا بالحد ..

« الثالث » ان الأمم جميعهم من أهل العلوم والمقالات ، وأهل الأعمال والصناعات يعرفون الأمور التى يحتاجون الى معرفتها ويحققون ما يعانونه من العلوم والأعمال من غير تكلم بحد ولا نجد أحدا من أئمة العلوم يتكلم بهذه الحدود ، لا أئمة الفقه ولا النحو ولا الطب ولا الحساب ولا أهل الصناعات ، مع انهم يتصورون مفردات علمهم . فعلم استغناء التصور عن هذه الحدود ..

« الرابع » الى الساعة لايعلم الناس حد مستقيم على أصلهم . بل أظهر الأشياء — وحده بالحيوان الناطق — فيه الاعتراضات المشهورة ، وكذا حد الشمس وأمثاله ، حتى ان النحاة لما دخل متأخروهم فى الحدود ذكروا للاسم بضعة وعشرين حدا وكلها معترضة على أصلهم . والأصوليون ذكروا للقياس بضعة وعشرين حدا وكلها أيضا معترضة ، وعامة الحدود المذكورة فى كتب الفلاسفة والأطباء والنحاة وأهل الأصول والكلام معترضة لم يسلم منها الا القليل . فلو كان تصور الأشياء موقوفا على الحدود ولم يكن الى الساعة قد تصور الناس شيئا من هذه الأمور ؛ والتصديق موقوف على التصور ، فاذا لم يحصل تصور لم يحصل تصديق — فلا يكون عند بنى آدم علم من عامة علومهم وهذا من أعظم السفسطة ..

« الخامس » ان تصور الحاجة انما يحصل عندهم بالحد الحقيقى المؤلف، من الذاتيات المشتركة والمميزة ، وهو المركب من الجنس والفصل ، وهذا الحد اما متعذر أو متعسر . كما قد أقروا بذلك ، وحينئذ فلا يكون قد تصور حقيقة من الحقائق دائما أو غالبا .. وقد تصورت الحقائق فعلم استغناء التصور عن الحد ..

« السادس » ان الحدود عندهم انما تكون للحقائق المركبة ، وهى الأنواع التى لها جنس وفصل فأما ما لاتركيب فيه وهو ما لايدخل مع

غيره تحت جنس كما مثله بعضهم بالعقل ـ فليس له حد ، وقد عرفوه . وهو من التصورات المطلوبة عندهم . فعلم استغناء التصور عن الحد . بل اذا أمكن معرفة هذا بلا حد فمعرفة تلك الأنواع أولى ، لأنها أقرب الى الجنس ، وأشخاصها مشهورة . وهم يقولون ان التصديق لايتوقف على التصور التام الذى يحصل بالحد الحقيقى بل يكفى فيه أدنى تصور ولو بالخاصة ، وتصور العقل من هذا الباب ، وهـذا اعتراف منهم بأن جنس التصور لايتوقف على الحد الحقيقى ..

« السابع » ان سامع الحد ، ان لم يكن عارفا قبل ذلك بمفردات ألفاظه ودلالاتها على معانيها المفردة لم يمكنه فهم الكلام ، والعلم بأن اللفظ دال على المعنى الموضوع له مسبوق بتصور المعنى ، وان كان متصورا لمسمى اللفظ ومعناه قبل سماعه امتنع أن يقال انما تصوره بسماعه ..

« الثامن » اذا كان الحد قول الحاد فمعلوم ان تصور المعانى لايفتقر الى الألفاظ . فان المتكلم قد تصور ما يقوله بدون لفظ ، والمستمع يمكنه ذلك من غير مخاطب بالكلية ، فكيف يقال : لا تتصور المفردات الا بالحد..

« التاسـع » ان الموجودات المتصورة اما أن يتصـورها الانسان بحواسـه الظاهرة كالطعم واللون والريح والأجسام التى تحمل هـذه الصفات ، أو البـاطنة كالجوع والحب والبغض والفرح والحزن واللذة والألم والارادة والكراهة وأمثال ذلك ، وكلها غنية عن الحد ..

« العاشر » انهم يقولون : للمعترض أن يطعن على الحد بالنقض فى الطرد أو فى المنع ، وبالمعارضة بحد آخر ، فاذا كان المستمع للحد يبطله بالنقض تارة وبالمعارضة تارة أخرى ـ ومعلوم ان كليهما لايمكن الا بعد تصـور المحدود ـ علم أنه يمكن تصـور المحدود بدون الحد ، وهو المطلوب ..

« الحادى عشر » انهم معترفون بأن من التصورات ما يكون بديهيا لايحتاج الى حد ، وحينئذ يقال : كون العلم بديهيا أو نظريا من الأمور النسبية الاضافية ، فقد يكون النظرى عند رجل بديهيا عند غيره لوصوله

اليه بأسبابه من مشاهدة أو تواتر أو قرائن ، والناس يتفاوتون فى الادراك تفاوتا لاينضبط . فقد يصير البديهى عند هذا دون ذاك بديهيا لذاك أيضا بمثل الأسباب التى حصلت لهذا ولا يحتاج الى حد ..

***

ثم ينتقل الامام الى تعريف الحد فيقول : المحققون من النظار على ان الحد فائدته التمييز بين المحدود وغيره ، فالاسم ليس فائدته تصوير المحدود وتعريف حقيقته ، وانما يدعى هذا أهل المنطق اليونانيون أتباع ارسطو ومن سلك سبيلهم تقليدا لهم من الاسلاميين وغيرهم . فأما جماهير أهل النظر والكلام من المسلمين وغيرهم فعلى خلاف هذا وانما أدخل هذا من تكلم فى أصول الدين والفقه بعد أبى حامد فى أواخر المائة الخامسة ، وهم الذين تكلموا فى الحدود بطريقة أهل المنطق اليونانى ، وأما سائر النظار — من جميع الطوائف الأشعرية والمعتزلة والكرامية والشيعة وغيرهم — فعندهم انما يفيد الحد التمييز بين المحدود وغيره . وذلك مشهور فى كتب أبى الحسن الأشعرى والقاضى أبى بكر وأبى اسحق وابن فورك والقاضى أبى يعلى وابن عقيل وامام الحرمين والنسفى وأبى على وأبى هاشم وعبد الجبار والطوشى ومحمد بن الهيثم وغيرهم . ثم ان ما ذكره أهل المنطق من صناعة الحد لاريب انهم وضعوها وضعا ، وقد كانت الأمم قبلهم تعرف حقائق الأشياء بدون هذا الوضع ، وعامة الأمم بعدهم تعرف حقائق الأشياء بدون وضعهم ، وهم اذا تدبروا وجدوا أنفسهم يعلمون حقائق الأشياء بدون هذه الصناعة الوضعية ..

***

فهذا وما جرى مجراه من كلام الامام ابن تيمية تصحيح للمنطق وتحرير للعقل من قيود المصطلحات التى تعوقه عن النظر السليم ولا تطلقه على سوائه ، ووجهته أن المنطق مقيد بالعقل وليس العقل مقيدا بالمنطق كما جعله المقلدون من عبّاد الألفاظ وأصحاب اللجاجة بالمصطلحات الموضوعة

ومن احاطة هذا الامام الثبت بفنون البحث أنه يستقصيه اثباتا ونفيا في كل باب من أبوابه وعلى كل منهج من مناهجه سواء منها ما شاع في عصره وما ندر في ذلك العصر وشاع في الزمن الأخير حتى حسبه بعضهم من مخترعات العصر الحديث كالاستقراء الذى يشبه الاحصاء والمقارنة بالأرقام والمقادير . فمن حججه على أدعياء المنطق وأصحاب الجدل مشاهدات الواقع واحصاءاته المحسوسة التى أثبتت له قلة جدوى المصطلحات المنطقية فى الفهم والتفاهم والتوفيق بين الآراء وتقريب العقول من الاقناع والاقتناع . قال فى كتابه نقض المنطق : « انك تجدهم أعظم الناس شكا واضطرابا وأضعف الناس علما ويقينا ، وهذا أمر يجدونه فى أنفسهم ويشهده الناس منهم ، وشواهد ذلك أعظم من أن تذكر هنا .

وانما فضيلة أحدهم باقتداره على الاعتراض والقدح والجدل . ومن المعلوم ان الاعتراض والقدح ليس بعلم ولا فيه منفعة ، وأحسن أحوال صاحبه أن يكون بمنزلة العامى ، وانما العلم فى جواب السؤال ، ولهذا تجد غالب حججهم تتكافأ اذ كل منهم يقدح فى أدلة الآخر . وقد قيل ان الأشعرى — مع انه من أقربهم الى السنة والحديث وأعلمهم بذلك — صنف فى آخر عمره كتابا فى تكافؤ الأدلة يعنى أدلة علم الكلام . فان ذلك هو صناعته التى يحسن الكلام فيها . وما زال أئمتهم يخبرون بعدم الأدلة والهدى فى طريقهم ، كما ذكرناه عن أبى حامد وغيره ، حتى قال أبو حامد الغزالى (أكثر الناس شكا عند الموت أهل الكلام) . وهذا أبو عبد الله الرازى من أعظم الناس فى هذا الباب — باب الحيرة والشك والاضطراب — لكن هو مسرف فى هذا الباب بحيث انه يتهم فى التشكيك دون التحقيق بخلاف غيره فانه يحقق شيئا ويثبت على نوع من الحق .

لكن بعض الناس قد يثبت على باطل محض بل لابد فيه من نوع من الحق . وكان من فضلاء المتأخرين وأبرعهم فى الفلسفة والكلام ابن واصل الحموى كان يقول : أستلقى على قفاى وأضع الملحفة على نصف وجهى ثم أذكر المقالات وحجج هؤلاء وهؤلاء واعتراض هؤلاء وهؤلاء حتى

مطلع الفجر ، ولم يترجح عندى شىء . ولهذا أنشد الخطابى :

حجج تهافت كالزجاج تخالها   حقا وكل كاسر مكسور

فاذا كانت هذه حال حججهم فأى لغو باطل وحشو يكون أعظم من هذا ؟ ..

ثم استطرد من هذا قائلا ما فحواه : ان الخلاف يقل كلما قل المنطق ويكثر ويشتد كلما كثرت مناقشاته واشتدت منازعاته ، وبالجملة فالثبات والاستقرار فى أهل الحديث والسنة أضعاف أضعاف ما هو عند أهل الكلام والفلسفة ، بل المتفلسف أعظم اضطرابا وحيرة فى أمره من المتكلم لأن عند المتكلم من الحق الذى تلقاه عن الأنبياء ما ليس عند المتفلسف ، ولهذا تجد مثل أبى الحسن البصرى وأمثاله أثبت من مثل ابن سينا وأمثاله . وأيضا تجد أهل الفلسفة والكلام أعظم الناس افتراقا واختلافا مع دعوى كل منهم ان الذى يقوله حق مقطوع به قام عليه البرهان .. وأهل السنة والحديث أعظم الناس اتفاقا وائتلافا ، وكل من كان من الطوائف اليهم أقرب كان الى الاتفاق والائتلاف أقرب . فالمعتزلة أكثر اتفاقا وائتلافا من المتفلسفة ، اذ للفلاسفة فى الالهيات والمعاد والنبوات ، بل وفى الطبيعيات والرياضيات وصفات الأفلاك ــ من الأقوال ما لايحصيه الا ذو الجلال . وقد ذكر فى جميع مقالات الأوائل مثل أبى الحسن الأشعرى فى كتاب المقالات ، ومثل القاضى أبى بكر فى كتاب الدقائق من مقالاتهم ما يذكره الفارابى وابن سينا وأمثالهما أضعافا مضاعفة ..

وأهل الاثبات من المتكلمين مثل الكلابية والكرامية والأشعرية أكثر اتفاقا وائتلافا من المعتزلة . فان فى المعتزلة من الاختلاف وتكفير بعضهم بعضا حتى ليكفر التلميذ أستاذه من جنس ما بين الخوارج . وقد ذكر من صنف فى فضائح المعتزلة من ذلك ما يطول وصفه . فلست تجد اتفاقا وائتلافا الا بسبب اتباع آثار الأنبياء من القرآن والحديث وما يتبع ذلك ، ولا تجد افتراقا واختلافا الا عند من ترك ذلك وقدم غيره عليه ..

وقد سلك ابن تيمية هذا المسلك فى مواضع كثيرة من رسائله وكتبه التى أدارها على مناقضة الجدليين والمناطقة المتشبثين بالمصطلحات والتعريفات اللفظية ، فلا يسع منصفا أن يظن به انه يحرم الحجة والبرهان وهذه حججه وبراهينه تعتمد على الدليل والقرينة والاستقراء والمشاهدة وكل ما تنتظم به قضايا المنطق ودعاواه ، وغاية ما يقوله المنصف ان التحريم عنده مقصود به اللغو والجدل والولع بالسفسطة على غير جدوى ، وانه تحكيم للعقل فى المنطق انقاذا له من تحكيم المنطق فيه ، ولا يكون المنطق متحكما فى العقل صارفا له عن النظر القويم الا اذا غلبت فيه أشكال اللفظ والصيغة على حقائق المعنى وجواهره . فهو بهذه المثابة ربقة للعقول ينبغى للمفكرين أن يطلقوها من شباكها ليستقيموا بها على سوائها ..

***

وماكان ابن تيمية بالذى يظن به انه يعادى المنطق لأنه يجهله ويستخف به مداراة لعجزه عنه . فان معرفته به ظاهرة فى معارض قوله كأنه من زمرة المتخصصين له والمتفرغين لدراسته وحذق أساليبه . ومثل هذا لا يتصدى للمنطق الا أن يكون فيه ما يخشى ضرره على الناس ، ولا سيما المشتغلين به من غير أهله ..

ولقد تصدى للمناطقة الجدليين هذان الامامان الجليلان ــ أبو حامد الغزالى وابن تيمية ــ وكلاهما يلقب بحجة الاسلام ويدل تلقيبه بهذا اللقب على المكانة التى استحقاها بين المسلمين بالقدرة على الاحتجاج واقامة الدليل . فليس من شأن علماء الاسلام ولا من شأن المسلمين الذين يجلونهم ويقتدون بهم ويستمعون اليهم أن تسقط عندهم الحجة ويبطل بينهم الاقناع . وما خسر من المنطق شيئا من خلصت له الحجة القائمة . فان اقامة الحجة هى المنطق السليم فى جوهره الصحيح منطلقا من عوائق الأشكال والعناوين ..

ولا يخفى ان المسلمين عقيدة واحدة فيما يرجع الى أوامر القرآن

ونواهيه والى الصريح من نصوص التحليل والتحريم فيه . فلا مذاهب هنا ولا شيع ولا تأويلات ، ومتى صرح الكتاب المبين بوجوب التعويل على العقل ، أو فوض للانسان حق التعويل على عقله ، فليس لمسلم أن ينازع فى هذا الحق أو فى ذلك الواجب ، ولكن الاسلام ــ كما هو معلوم ــ قد دانت به شعوب متفرقة الأصول والأجناس واللغات ، جاءته بتراث فى عاداتها وأفكارها فسرى هــذا الاختلاف الى تفسيراتها لبعض الآيات وتأويلاتها لبعض الأقوال والعبارات . ويجوز أن يقع هــذا الاختلاف فيما يتعلق بمواضع النظر وأساليب الفهم والتفكير ، وهكذا خطر لبعض المستشرقين وكتاب الغرب الذين بحثــوا فى علاقة اختــلاف الشــعوب باختلاف مذاهب النظر والاجتهاد ، فظن بعضهم إن طوائف الشيعة آمنت بالامام لأنها ورثت تقديس الرؤساء والأحبار وقيدت من حق العقل فى البحث والفهم بمقدار ما أطلقت من سلطان الامام ووكلت اليه من حق القيادة والارشاد ..

وفى هــذا الظن من المستشرقين وهم لاشك فيه ، لأن هــذه المسألة بذاتها ــ مسألة الدراسة العقلية ــ قد كانت فى طليعة المســائل التى اشتغل بها الشيعة الاماميون ، ومن أفواه الشيعة الاماميين تلقى أساطين الفلسفة الاسلامية كلامهم فى العقــل والنفس وفى مذهب الأفلاطونيــة الحديثة ومذهب افلوطين منها على التخصيص . ويقول الشيخ الرئيس ابن سينا فيما رواه عنه تلميذه الجوزجانى : « كان أبى ممن أجاب داعى المصريين ويعد من الاسماعيلية وقد سمعت منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذى يقولونه ويعرفونه هم . وكذلك أخى » ..

والفارابى أستاذ ابن سينا بالاطلاع والقدوة نشأ فيما وراء النهر ورعى أقوال الشيعة الامامية فى شروط الامامة ومزج بينها وبين شروط افلاطون فى كتاب الجمهــورية ، فجعل الامام صــفوة الخلق فى كمال الصــفات واجتماع الفضائل العقلية والنفسية ، بل فضائل الجسد التى تنزهت عن شوائب الضعف والمرض . وكان اخوان الصفاء يدينون بمذهب فى الامامة

كهذا المذهب ويؤلفون الرسائل مع هذا فى المنطق وفى علوم الرياضة والفلك وما اليها من علومهم العقلية ..

فالدراسات المنطقية ــ وسائر الدراسات العقلية ــ كانت من شواغل الشيعة الاماميين ولم يكن ايمانهم بالامامة مما يصرف العقل عن التوسع فى علم من العلوم ، وربما أخذت عليهم طوائف المسلمين افراطا فى هذا الباب ولم تأخذ عليهم تفريطا فيه يتعمدونه أو يساقون اليه على غير عمد . وانما كان الامام عندهم مرجع المختلفين حين ينقطع بهم القياس ويؤول الرأى الى هداية المعلم فيما جاوز طاقة المتعلمين ، وحجتهم فى ذلك ان المعرفة لا تتحقق كلها بالقياس وان شيئا وراء القياس ينبغى أن يصار اليه فى حال من الأحوال . وهم يلجأون الى القياس حتى فى اثبات هذه الحقيقة كما يؤخذ من المناقشة المشهورة بين الامامين جعفر الصادق وأبى حنيفة . قال الامام جعفر : أيهما أكبر يا نعمان .. القتل أو الزنا ؟.. قال الامام أبو حنيفة : القتل ، فقال الامام جعفر : فلم جعل الله فى القتل شاهدين وفى الزنا أربعة ؟.. أينقاس لك هذا ؟.. ثم قال : فأيما أكبر البول أو المنى ؟.. قال : البول . قال : فلم أمر الله فى البول بالوضوء وفى المنى بالغسل ؟.. أينقاس لك هذا ؟.. [1] الى آخر الأمثلة التى ساقها الامام جعفر .. وهى فى الواقع قياس للدلالة على ان القياس لا يغنى فى جميع الأحوال عن الرجوع الى الامام المتبوع . فليس هو انكارا للقياس ولكنه انكار لدعوى من يدعى ان القياس يصلح لكل قضية ويفض كل خلاف ..

ولسنا نقول ان الأمثلة قاطعة بالحجة ، لأن الواقع ان اثبات القتل أيسر من اثبات الزنا وان تأويل الاختلاف بين طهارة الوضوء وطهارة الغسل لايمتنع بالدليل المعقول ، فان المسألة هنا ليست مسألة مادة تخرج من الجسم وكفى ، ولكنها مسألة الاختلاف بين حالة يضطرب لها الجسم كله وحالة لا اضطراب فيها كذلك الاضطراب ، وهو اختلاف يكفى لتفسير

---

(١) مسند الامام جعفر الصادق

التطهير فى احداهما بالوضوء والتطهر فى الأخرى بالغسل الذى يعم جميع الأعضاء ..

الا ان المثل الذى ســاقه الامام كان فى بيان لزوم القيــاس حتى فى مناقشة القياس على اطلاقه ، ولم يخطىء التوفيق جماعة المستشرقين فى شىء كما أخطأهم فى ظنهم ان تحكيم العقل محظور على طائفة المسلمين لأنها ترى فى الامامة رأيا يخالف جملة الآراء فى هــذا البــاب . ولعل الروايات التى يتناقلها المستشرقون أنفسهم عن الاسماعيليــة والامامية والفرق التى يسمونها بالباطنية خليقة أن تكون شــاهدا صالحا عندهم لافراط هذه الطائفة فى الاشتغال بالمنطق لو أرادوا أن يصفوها بالافراط فيه .. أما انها تنكر المنطق ، أو تنكر النظر والقياس ، فلا شبهة له مما تناقلوه عنهم من تلك الروايات ..

ولا غرابة ــ بعد ــ فى قيام فرقة بين المسلمين تخالف سائر الفرق فى موضوع العقل والمنطق ، فان الديانات لم تخل قط من أمثال هذا الخلاف على وجه من الوجوه ، ولكن الواقع المقرر فى هــذه المسألة بذاتها ان حرية العقل لايقيدها فى الاسلام حكم مأثور على مذهب راجح أو على مذهب مرجوح ..

الفلسفة

فلسفة التاريخ ، وفلسفة اللغة ، وفلسفة الأخلاق ، وفلسفة الرياضة ، وغيرها من أنواع الفلسفة مصطلحات حديثة يراد بها البحث فى النظريات والأفكار التى تقوم عليها تلك العلوم ، أو البحث فى النظريات والأفكار التى تفسر تلك العلوم وتبين وجهتها وغايتها ، ويراد بهذه الفلسفات — اجمالا — انها دراسات فكرية فرضية غير الدراسات التى تقررت بالوقائع والتجارب المحسوسة من قبيل علوم الطبيعة وما جرى مجراها ..

الا ان الفلسفة التى نعنيها هنا أعم من هذه الفلسفات جميعا لأنها قد تشملها من وجهة النظر فى الأصول وتجاوزها الى البحث فيما وراء الحقائق المحسوسة ، مما يسمى أحيانا بالبحث فيما وراء الطبيعة أو البحث فى كنه الوجود كله على التعميم ..

ويلاحظ فى التاريخ المتواتر ان هذه الفلسفة العامة — فلسفة ما وراء الطبيعة — شاعت فى بعض الأمم القديمة وقل شيوعها فى أمم أخرى ..

ويلاحظ كذلك ان بلاد الدول الكبار لم تكن بيئات صالحة لنشأة هذه الفلسفة ونبوغ فلاسفتها ، وان الأمر لايرجع الى اختلاف درجات الحضارة بل الى أسباب غير هذا السبب ، كما يؤخذ من تواريخ الحضارات الأولى ..

فالهند ومصر وبلاد ما بين النهرين وبلاد الدولة الرومانية كانت على درجة عالية من الحضارة وعلى حظ وافر من العلوم والصناعات ، ولكنها لم تتسع لشيوع الفلسفة كما اتسعت لها بلاد اليونان فى عصر من عصورها قبيل ميلاد المسيح ، وهى مع ذلك لم تبلغ من الحضارة والعلم والصناعة مبلغ البلاد التى قامت فيها الدول الكبرى وقل فيها شيوع الفلسفة ونبوغ الفلاسفة ..

والباحثون الأوربيون يحبون أن يعللوا ذلك بعلة ترضيهم وتدل عندهم على امتياز السلالات الأوربية بين جميع السلالات البشرية ..

يقولون ان طلب المعرفة لمحض المعرفة مزية من مزايا العقل الأوربى دون غيره بين عقول الأمم من سائر الأجناس ، وان الأمم من غير الأجناس الأوربية تطلب العلم لمنفعة وتهتم بالمعرفة لما تستفيده منها فى معاشها ، ولا تهتم بها لأنها مطبوعة على التفكير وطلب الحقيقة لذاتها ..

ودلائل العصبية العنصرية هنا ظاهرة تكفى لاخراج هذه العلة عن عداد العلل العلمية الخالصة لوجه البحث والمعرفة . وقد حدث للأمم الأوربية انها حجرت على الفلسـفة حين عرضت لها ظروف اجتماعية أو سياسية كالظروف التى سبقتها فى الدول الشرقية ..

فالسبب العنصرى هنا قاصر عن تفسير العلة فى اختلاف اقبال الأمم على الفلسفة ، وانما ترجع تلك العلة الى أسباب واحدة بين الشرق والغرب ، وبين الماضى والحاضر ، كلما تشابهت الظروف على تباعد الأزمنة والجهات.

والغالب ان الدول الكبيرة ، وهى الدول التى تقوم عادة على الأنهار الكبيرة ، تستقر فيها سلطة دينية متوارثة كالسلطة السياسية ، وان هذه السلطة الدينية تستأثر بمباحث العقيدة ومباحث ما وراء الطبيعة ولا تسمح لأحد بأن يزاحمها فى المعارف التى تتعلق بالأرباب وأسرار الخلق وأصول الحياة أو أصول الوجود كله على التعميم . وقد وجدت هـذه السلطة الدينية القوية فى أوربا بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر للميـلاد فامتنع ظهور الفلسفة فيها وساء حظ الفلاسفة بين علمائها ومحتكرى العلم من أحبارها وكهانها . وحدث قبل ميلاد السيد المسيح ان عبادة الامبراطور تقررت فى الدولة الرومانية وان الدولة عرفت سلطان الكهانة بين شعوبها فامتنع فيها ظهور الفلسفة ونبوغ الفلاسفة ولم يكن محصولها منها بأوفر من محصول الفلسفة فى دول الحضارات الشرقية ، وقامت الدولة الرومانية ثم سقطت وهى عالة على بقايا الفلسفة اليونانية تأخذ منها ما يحسب من فلسفة السلوك والأخلاق وتحجم عما عداه من أبواب الفلسفة المعنية بما

وراء الطبيعة وما تخوض فيه من المشكلات والأسرار ..

وقد فسر الاسلام هذا الفارق بين الأمم فى عنايتها العامة بالفلسفة على طريقته العملية حين قامت فيه الدولة بغير كهانة ، فكانت دولة الاسلام أرحب الدول صدرا وأسمحها فكرا مع الفلسفة على عمومها والفلسفة اليونانية فى جملتها ، بل كانت الأمة الاسلامية أرحب صدرا وأسمح فكرا مع الفلسفة اليونانية من بلاد العالم اليونانى الذى نشأت فيه ، كما يؤخذ من مصائر الفلاسفة بين أبناء العالم اليونانى ومصائر الفلاسفة المسلمين وغير المسلمين فى بلاد الاسلام ..

كان « ثالوث » الفلسفة الأكبر يتجمع من سقراط وافلاطون تلميذ سقراط وأرسطو تلميذ افلاطون ، وكان أشهر الفلاسفة بعد هذين فيثاغوراس امام الحكمة الصوفية وزينون امام الفلسفة الرواقية ، وكل من هؤلاء الحكماء ــ المعبرين عن حكمة عصورهم ــ قد أصيب فى زمنه بمصاب لايدل على قرار أمين ..

فسقراط قضى عليه بالموت ، وافلاطون بيع فى سوق العبيد ، وأرسطو نجا بنفسه من أثينا خوفا من عاقبة كعاقبة سقراط بعد أن رماه كاهن من كهانها بالالحاد ، وقيل انه ألقى بنفسه فى البحر وزعم بعض مؤرخيه انه لم يبخع نفسه فرارا من الاضطهاد ، بل غما من تفسير علة المد والجزر فى البحر الذى ألقى بنفسه فيه ..

أما فيثاغوراس فقد مات قتيلا بجانب مزرعة فول ، وبخع زينون نفسه لأن الآلهة أمرته بذلك كما قال لبعض تلاميذه ، ولا تعلم على التحقيق علاقة مصيره هذا ولا مصير فيثاغوراس بالدعوة الفلسفية ولكنه ــ على أى وجه من الوجوه ــ مصير لايدل كما أسلفنا على قرار أمين ..

ونقارن بين هذه الأحوال التى عرضت لأكبر فلاسفة اليونان وبين أحوال الفلاسفة من المسلمين من المشتغلين بالفلسفة اليونانية وهى أجنبية فى البلاد الاسلامية فلا نرى أحدا أصيب بمثل هذا المصاب من جراء الفلسفة أو الأفكار الفلسفية ، ومن أصيب منهم يوما بمكروه فانما كان

مصابه من كيد السياسة ولم يكن من حرج بالفلسفة أو حجر على الأفكار

فأشهر الفلاسفة المسلمين فى المشرق ابن سينا الملقب بالشيخ الرئيس دخل السجن لأنه كان عند أمير همذان فبرم بالمقام عنده وأراد أن يلحق بأمير أصفهان علاء الدولة بن كاكويه فسجنه أمير همدان ليبقيه الىجواره ولم يسجنه عقوبة له على رأى من آرائه ..

وابن رشد أشهر الفلاسفة المسلمين فى المغرب أصابته النكبة لأنه لقب الخليفة المنصور فى بعض كتبه بلقب ملك البربر وكان يصادق أخاه « أبا يحيى » ويرفع الكلفة بينه وبين الخليفة فيناديه « يا أخى » وهو فى مجلسه الخاص بين وزرائه وكبرائه ، ويحتاج المؤرخ فى كل مصادرة فكرية أو دينية ـ كما قلنا فى تاريخ الفيلسوف ـ الى البحث عن سببين أحدهما معلن والآخر مضمر ، فقليلا ما كان السبب الظاهر هو سبب النكبة الصحيح ، وكثيرا ما كان للنكبة غير سببها الظاهر سبب آخر يدور على بواعث شخصية أو سياسية تهم ذوى السلطان ويسرى هذا على الشعراء كما يسرى على الفلاسفة ، ويسرى على الجماعات كما يسرى على الآحاد . ولقد نكب بشار ولم ينكب مطيع بن اياس وكلاهما كان يتزندق ويهرف فى أمور الزندقة بما لايعرف ، ولكن بشارا هجا الخليفة ومطيع لم يقترف هذه الحماقة . فنجا مطيع وهلك بشار ، ولم يكن ابن رشد أول شارح لكتب الأقدمين . فقد سبقه ابن باجة الى شرح بعضها وان لم يتوسع فى هذا العمل مثل توسعه ولكن ابن باجة كان يحسن مصاحبة السلطان وابن رشد لم يكن يحسن هذه الصناعة ، فنكب ابن رشد ولم ينكب ابن باجة ولم يغن عن الفيلسوف المنكوب انه شرح الكتب كما تقدم بأمر من أبى الخليفة » ..

واشتغل بالفلسفة اليونانية غير ابن سينا وابن رشد أعلام من هذه الطبقة من طراز الكندى والفارابى والرازى ، كما اشتغل بها أناس دون هذه الطبقة فى الشهرة والمكانة فلم يصب أحدهم بسوء من جراء تفكيره ولم يصدهم أحد عن البحث والكتابة الا أن تستدرجهم حبالة من حبائل

السياسة فينالهم منها ما ينال سائر ضحاياها ولو لم يكن أسهم فى مذاهب الفلسفة أو الدين ..

***

وربما كمنت السياسة وراء دعوات المتفلسفين كما كانت وراء المصادرة من جانب الدولة وحكامها . لأن الزندقة التى كانت تتستر بستار الفلسفة انما كانت فى ناحية من نواحيها ثورة مجوسية ترمى الى هدم الدولة الاسلامية من أساسها واقامة الدولة الفارسية فى مكانها . وتنسب الزندقة فى أرجح الأقوال الى كلمة « زندا » التى كانت تطلق على شرح كتاب « زردشت » وتعليقات الديانة المجوسية ، وربما عمد الخلفاء الى أناس من العلويين فاتهموهم بالزندقة على خلاف المعقول أو المنتظر من أسرة تقيم حقوقها فى الخلافة على وراثة النبى عليه السلام والمحافظة على رسالته الدينية ، ولكن الشبهة كانت تلحق بهم من الاشتراك فى مقاومة الدولة ولو على غير تفاهم بين الفريقين ، وكان أعوان الدولة يحشرونهم جميعا فى زمرة واحدة لتشويه الحركة العلوية بالقاء الشبهة عليها من الوجهة الدينية ..

أما فيما عدا السياسة وشبهاتها ومكائدها فلم يصادر أحد من المشتغلين بالفلسفة لأنه يتفلسف أو يخوض فى بحث من البحوث الفكرية على تشعبها ، وما لم يكن هذا المتفلسف عدوا مجاهرا بمحاربة الدين والدولة ونشر الفتنة فلا جناح عليه ولا قدرة لخليفة أو أمير على مصادرته باسم الاسلام ..

ويصدق هذا من باب أولى على الفلسفة الاسلامية كما يصدق على الفلسفة الأجنبية ، فلم تنقطع بحوث المعتزلة وعلماء الكلام لغير علة من علل السياسة لا تلبث أن تزول بزوال المعتلين بها ، وقد طرق المعتزلة وعلماء الكلام كل باب مغلق من أبواب الأسرار الدينية التى حجرت عليها الكهانات القوية فى الديانات الأولى . فنظروا فى العقيدة الالهية وفى أصول الخلق والوجود وأحكام النبوءات وعددوا الأقوال والآراء

فى كل باب من هذه الأبواب على أوسع مدى وأصرح بيان . ووسعهم الاسلام جميعا وان ضاق بفريق منهم فى بعض الأحيان ..

***

ومن البديهى ان اشياع الفرق يخطئون فى مناقشاتهم ، وان الأمراء يخطئون فى سياستهم ، وان الدين يتبعه المخطىء والمصيب والخادع والناصح ، فليس حكم الاسلام فى مباحث الفلسفة برأى هذه الفرقة فى تلك ، ولا هو بحيلة هذا الأمير أو ذاك فيما يقصدان اليه من مآرب السياسة وانما حكم الاسلام هو حكم الكتاب والسنة المتفق عليها ، وليس فى الكتاب ولا فى السنة كلمة واحدة تحجر على التفكير فى شأن من شئون الفلسفة أو مذهب من مذاهبها ما لم تكن فى المذهب الفلسفى موبقة غير مأمونة على الشريعة أو على سلامة الجماعة فلا جناح على الفيلسوف أن ينظر فيما شاء وأن يفصح عن وجهة نظره كما شاء ..

واذا بدا لنا أن نلتمس مقياس الحرية الفكرية من الواقع الماثل للعيان أو من الناحية العملية التى تنكشف لنا فى حياتنا اليومية ، فهنالك الى جانب الكتاب والسنة دليل على حرية الاسلام يتقرر بحكم التاريخ الواقع ولا يلجئنا الى تأويل الآيات والأحاديث ، وهذا الواقع يقرر لنا دليله من روح الدين التى يوحى بها الى جملة أتباعه فى جملة عصوره . فلم يكن من روح الاسلام التى أوحى بها الى جماعاته أن يثير فيهم البغضاء للفكر والمفكرين وأن يبيح لهم عقوبتهم بالتعذيب والاحراق والحرمان من حقوق الانسان ، ولم يكن هذا الدليل الواقعى من روح الاسلام مقصورا على وطن أو سلالة فيقال انه مستمد من تراث ذلك الوطن أو تلك السلالة ، ولكنه عمّ بلاد المسلمين جميعا فى عصور كثيرة ، فلا يرجع به المؤرخ المنصف الى وحى غير وحى الكتاب الكريم ..

وتتجلى سعة الدين الاسلامى فى موقف الفلاسفة منه كما تتجلى فى موقف الدين من الفلاسفة . فان كبار الفلاسفة المسلمين قد خاضوا غمار الأفكار الأجنبية بين يونانية وهندية وفارسية وعرضوا لكل مشكلة من

مشاكل العقـل والايمان وتكلموا عن وجود الله ووجود العالم ووجود النفس ، وخرجوا من سبحاتهم الطويلة فى هذه المعالم والمجاهل فلاسفة مسلمين دون أن يعنتوا أذهانهم فى التخريج والتأويل ..

ومنهم من ترجم أرسطو وافلاطون الى الاسـلام فكرا وتقديرا فلم يعسر عليه أن يذهب معهما الى أقصى المدى فى رأى العقل دون أن يخرج من حظيرة الدين ..

***

ونحن ـ فيما نعلم من مذاهب هؤلاء الفلاسـفة الكبار ـ لا نرى فيلسوفا قال فى الخلق والخالق ما ينكره المسلم المؤمن بالله والوحى أو جنح به التعبير الفلسفى الى قول يأباه السامع الذى تعود التعبير عن مسائل الدين بلغته العربية وأسلوبه المتعارف بين جمهرة المتدينين ..

وأكبر الفلاسفة المسلمين الذين استوعبوا مسائل الفلسفة فيما وراء الطبيعة هم فى الرأى الغالب بين مؤرخى الثقـافة الاسلامية أبو نصر الفارابى وأبو على بن سينا فى المشرق وأبو الوليد بن رشد فى المغرب ، وكلهم قد اطلع على قسط وافر من فلسفة الحكيمين افلاطون وأرسطو وطائفة من آراء الحكماء الآخرين ، وليس فيهم من ذهب الى رأى فيما وراء الطبيعة لايذهب اليه الفيلسوف المسلم اذا تكلم بلغة الفلاسفة ..

« والفارابى هو أول الفلاسفة المسلمين الذين تتلمذ لهم ابن سينا نوعا من التلمـذة .. فقرأ له وانتفع بما قرأ فى فهم مضـامين الفلسفة اليونانية ، وكان « المعلم الثانى » معلما كاملا له فى معضلات الفلسفة الالهية بجملتها ، لأنه أضاف مسائل الحكمة الدينية الى مسائل الحكمة المنطقية وأدخل مسألة التوفيق بين العقل والوحى فى حسابه ، وقد كانت من المسائل الحديثة فى الاسلام فلم يبل فيها أحد بلاء الفارابى ولا جاوز أحد فيها مداه الذى انتهى اليه وان تبعه فى هذا المجال كثيرون .. ومن توفيقاته انه سمى العقل الفعال بالروح الأمين وسمى العقول بالملائكة

وسمى الأفلاك التى فيها العقول بالملأ الأعلى ، وقال ان صفات الله الأزلية هى المثل الأولى ..

« والذى اتفق عليه جلة الثقات ان فلسفة الفارابى فلسفة اسلامية لا غبار عليها . فلم ير فيها جمهرة المسلمين المعنيين بالبحث الفكرى حرجا ولا موضع ريبة ، ولا نخالها تغضب متدينا بالاسلام أو بغيره من الأديان ..

فالمعلم الثانى يبرىء المعلم الأول ــ وهو أرسطو ــ من انكار خلق العالم ، ويفسر آراءه على وجه يرضاه المؤمنون بالله والنبوات ..

« فالله عنده هو « السبب الأول » والسبب الأول واجب الوجود . لأن العقل يستلزم وجوده ولا يستطيع أن ينفيه بحال . فكل شىء له سبب وكل سبب له سبب متقدم عليه . وهكذا الى السبب الأول الذى لايتقدمه سبب من الأسباب ، والا وقعنا فى الدور والتسلسل وهما باطلان ..

« وهذا السبب الأول واحد لايتكرر ، بسيط لايتغير ، لأنه لو تكرر أو تغير لاختلف ووجب البحث عن سبب لاختلافه ، وقد انتهت اليه جميع الأسباب ..

« هذا السبب الأول هو علة وجود كل موجود ، ولايمكن أن يكون العالم هو السبب الأول لأنه متكرر متغير فلابد له من سبب متقدم عليه . ومن ثم تنقسم الموجودات الى قسمين : قسم « واجب الوجود » يستلزم العقل وجوده لا محالة ، وهذا هو السبب الأول ، أو هذا هو الله سبحانه وتعالى ، ويوصف بكل صفات الكمال دون أن يقتضى ذلك التعدد ، لأن نفى النقائص المتعددة لايقتضى التعدد ، بل هو صفة واحدة معناها الكمال ..

« وقسم مفتقر الى سبب ، ووجوده ممكن ، ولكنه ينتقل من الوجود بالقوة الى الوجود بالفعل بسبب واجب ، فهو مخلوق على هذا الاعتبار.

« قال الفارابى ينفى الظنة عن أرسطو فى انكار القول بخلق العالم :

« ومما دعاهم الى ذلك الظن أيضا ما يذكره فى كتاب السماء والعالم أن الكون ليس له بدء زمانى ، فيظنون عند ذلك انه يقول بقدم العالم وليس الأمر كذلك ، اذ قد تقدم فبين فى ذلك الكتاب وغيره من الكتب الطبيعية والالهية ان الزمان انما هو عدد حركة الفلك وعنه يحدث ، وما يحدث عن الشىء لايشتمل ذلك الشىء ومعنى قوله ان العالم ليس له بدء زمانى انه لم يتكون أولا فأولا بأجزائه كما يتكون البيت مثلا أو الحيوان الذى يتكون أولا فأولا بأجزائه . فان أجزاءه يتقدم بعضها بعضا بالزمان ، والزمان حادث عن حركة الفلك ، فمحال أن يكون لحدوثه بدء زمانى ويصح بذلك انه انما يكون عن ابداع البارى جل جلاله اياه دفعة واحدة بلا زمان ، وعن حركته حدث الزمان » ..

وعلى هذا يكون الخلق فى رأى المعلم الثانى هو الاخراج من الامكان الى الفعل ، ويكون الوجود بالفعل مصاحبا للزمان . أما الوجود بالقوة فهو فى علم الله الذى لازمان له ولا مكان لأن الله أبدى لا أول له ولا آخر ، وانما يقترن الزمان بالموجودات المتحركات . وهذا ولاريب اجتهاد من المعلم الثانى فى تفسير كلام المعلم الأول ، ولكنه استحسن هذا الاجتهاد لأنه قرأ كتاب « الثيولوجية » أو الربوبية كما سماه وظنه من تواليف أرسطو ، وهو من آراء افلوطين وتفسير ملك الصورى واسكندر الأفروديسى ، ولهذا استطرد الفارابى بعد الكلام السابق قائلا : « ومن نظر فى أقاويله فى الربوبية فى الكتاب المعروف بأثولوجية لم يشتبه عليه أمره فى اثباته الصانع المبدع لهذا العالم ، فان الأمر فى تلك الأقاويل أظهر من أن يخفى ، وهناك تبين ان الهيولى أبدعها البارى جل ثناؤه لا عن شىء وانها تجسمت عن البارى سبحانه ثم ترتبت .. »

« وهذا فى الحقيقة مستمد من كلام افلوطين وتوسع فيه اسكندر الأفروديسى ، ثم جاء المعلم الثانى فتوسع فى كلام الأفروديسى وزاد عليه ما يوفق بينه وبين الدين ، ولا سيما فى مسألة العقول والأفلاك التى هى عند الفارابى من ملائكة الله . ويؤخذ من شرح الفارابى لبعض كلام

رينون الفيلسوف الرواقى انه اعتمد عليه أكبر اعتماد فى مسألة العقول . ولهذا كان مذهب الفارابى جامعا بين مذهب أرسطو عن الحركة ومذهب افلوطين عن الصدور ومذهب افلاطون عن المثل الأبدية ومذهب الرواقيين فى النفس العاقلة وانبثاثها فى الأجسام .. فمنذ الأزل وجدت الأشياء فى علم الله وهذا هو علة وجودها ، والله جل وعلا يعقل فالعقل الأول صادر عنه فائض من وجوده ، وهذا العقل الأول هو الذى يحرك الفلك الأكبر وتأتى بعده عقول الأفلاك المتوالية الى العقل العاشر الذى يعقد الصلة بين الموجودات العلوية والموجودات السفلية ..

« فالوجود اذن ثلاث مراتب : أولاها الوجود الالهى ، وثانيتها وجود هذه العقول المتدرجة ، وثالثتها وجود العقل الفعال . ومن هنا نفهم كيف تعددت الكثرة عن الواحد الذى لايتعدد ، وكيف جاءت الصلة بين المعانى المجردة والمحسوسات » (١) ..

« أما ابن سينا فعنده ــ كما عند أرسطو ــ ان المادة الأولية والصورة والعدم هى الأصول الثلاثة التى عنها تصدر كل الأجسام الطبيعية ، والعالم مخلوق لم يحدث فى زمان . يقول ما فحواه : ان هذه الكائنات اما أن تكون ممكنة الوجود جميعا واما أن تكون جميعها واجبة الوجود . ومحال أن تكون ممكنة الوجود جميعا ، لأن الممكن يحتاج الى علة تخرجه من حيز الامكان الى حيز الفعل . ومحال أن تكون واجبة الوجود جميعا ، لأنها بين متحركة تحتاج الى محرك وبين مركبة تحتاج الى علة لتركيبها ، ولابد أن تسبقها أجزاؤها . فهى اذن بعض ممكن الوجود وبعض واجب الوجود . وواجب الوجود هو الذى لا نتصور عدمه ، لأن عدمه يوقعنا فى المحال . ومن المحال أن يكون واجب الوجود مسبوقا ، لأن الذى يسبقه يكون اذن أولى بالوجود . ومن المحال أن يكون مركبا لأن أجزاء المركب تسبقه وتحتاج الى فاعل للتركيب والايجاد . فهو أول ، وهو جوهر بسيط منزه عن التركيب ..

---

(١) تراجع رسالة الشيخ الرئيس ابن سينا لمؤلف هذا الكتاب .

« ولم يكن ابن سينا مبدعا فى كلامه عن واجب الوجود ، أو ممكن الوجود ، لأن الفارابى قد سبقه اليه ، كما سبقه المعتزلة وبعض المتكلمين . ولكن ابن سينا قد أبدع تقسيم الوجود الى واجب بذاته وممكن بذاته ولكنه واجب بغيره . وبذلك وفق بين القائلين بقدم العالم وخلقه . فان العالم ممكن بذاته ، ولكنه واجب بغيره ، لأنه كان فى علم الله وما كان فى علم الله لابد أن يكون » ..

« وليس العالم حادثا فى زمان لأن الزمان وجد مع العالم .. تحرك العالم فوجد الزمان مع هذه الحركة ، وانما كان وجوده لأنه وجد فى علم الله فأخرجه الله من الوجود بالقوة الى الوجود بالفعل ، والله قديم بالذات سرمد لا يحيط به وقت ولا محل . فالعالم كما كان فى ارادة الله قديم ، وكما كان بالحركة مسبوق بذات الله ، وهو سبق سرمدى لايحده الزمان ، وهنا يقول ابن سينا بالحركة الأولى كما قال ارسطو بها أو بالعلة الأولى » (١) ..

وقبل الاستطراد الى تلخيص مذهب ابن رشد نلم بالمسائل التى ثار عليها الخلاف بين الفلاسفة والفقهاء بعد عصر الفارابى وابن سينا وكان أكثره خلافا على التعبير دون المعانى الجوهرية . ويدور كله على مسائل أربع هى قدم العالم وعلم الله بالجزئيات وصفات الله وخلود النفس بعد الموت ..

« ... وقد كانت لابن رشد آراء فى كل مسألة من هـذه المسائل ، ليست مطابقة لما فهمه الأوربيون فى القرون الوسطى وليست مغايرة لها كل المغايرة ، ولكنها آراء كان الفيلسوف حريصا كل الحرص على أن يلتزم بها حدود دينه ولا يخرج بها عما يجوز للمسلم أن يعتقـده وأن يعلمه للمسلمين ، وسنرى مبلغ ما أصابه من التوفيق فى هذا التوفيق :

« يقول ابن رشد عن قدم العالم فى كتابه فصل المقال : « وأما مسألة قدمه أو حدوثه فان الاختلاف فيهـا عندى بين المتكلمين من الأشعرية

---

(١) تراجع رسالة الشيخ الرئيس .

وبين الحكماء المتقدمين يكاد يكون راجعا للاختلاف فى التسمية وبخاصة عند بعض القدماء ، وذلك أنهم اتفقوا على أن ها هنا ثلاثة أصناف من الموجودات : طرفان وواسطة بين الطرفين ، فاتفقوا فى تسمية الطرفين واختلفوا فى الواسطة . فأما الطرف الواحد فهو موجود وجد من شىء غيره وعن شىء – أعنى عن سبب فاعل ومن مادة ، والزمان متقدم عليه.. وهذه هى حال الأجسام التى يدرك تكونها بالحس مثل تكون الماء والهواء والأرض والحيوان والنبات وغير ذلك . فهذا الصنف اتفق الجميع من القدماء والأشعريين على تسميتها محدثة .. وأما الطرف المقابل لهذا فهو موجود لم يكن من شىء ولا عن شىء ولا تقدمه زمان ، وهذا أيضا اتفق الجميع من الفرقتين على تسميته قديما ، وهذا الموجود يدرك بالبرهان ، وهو الله تبارك وتعالى ، وهو فاعل الكل وموجده والحافظ له سبحانه وتعالى قدره . وأما الصنف من الوجود الذى بين هذين الطرفين فهو موجود لم يكن من شىء ولا تقدمه زمان ولكنه موجود عن شىء أى عن فاعل ، وهذا هو العالم بأسره والكل منهم متفق على وجود هذه الصفات الثلاث للعالم .. فان المتكلمين يسلمون أن الزمان غير متقدم عليه ، أو يلزمهم ذلك . اذ الزمان عندهم شىء مقارن للحركات والأجسام » (١) ..

وأما علم الله بالجزئيات فابن رشد يقرر فيه ان علم الله يتنزه أن يكون كعلم الانسان الذى يحدث بعد حدوث المعلوم فان الله يعلم كل شىء ولا يتوقف علمه على حدوث جزء بعد جزء من هذه الأشياء ..

وأما مسألة الصفات .. فلم تكن موضع بحث عند الفلاسفة الاغريق، ولم يكن لها شأن كبير عند فلاسفة الأوربيين فى القرون الوسطى ، ولكنها أثارت الجدل الطويل بين علماء الكلام والمعتزلة والفلاسفة المسلمين ، ومثال الجدل فيها ان بعض الفلاسفة يقولون : ان صفات الله هى غير ذاته ، وان الصفات ليست بزائدة على ذات الله ، لأن ذاته سبحانه

(١) تراجع رسالة ابن رشد للمؤلف

وتعالى كاملة لا تتعدد ، وغير هؤلاء الفلاسفة يردون عليهم ليوفقوا بين تعدد الصفات ووحدانية الله ..

« ولتمحيص القول بخلود النفس عند ابن رشد ينبغي الرجوع الى مذهب أرسطو فى النفس والعقل ، لأنه اذا صح ما قيل من أن توما الاكوينى نصّر أرسطو فأصح من ذلك ان ابن رشد حنفه أى جعله مسلما حنيفا واجتهد فى تنقيته من كل ما يخالف العقيدة الاسلامية غاية اجتهاده ، وقد أعان ابن رشد على ذلك ان كلمة الروح عندنا تشمل معنى النفس والعقل معا فى معظم معانيها ، فالنفس تقرن بالشر والذم فى كلامنا وقلما تقرن الروح بمثل ذلك ، فاذا قيل نفس شريرة على العموم فمن النادر أن يقال ذلك عن الروح وعن الروحانى ، لأن الروحانيات أشرف وأصفى من ذاك . وقد تكلم أرسطو عن النفس والعقل فى كتاب الأخلاق وفى كتاب النفس ووضح فى كلامه عن العقل انه ينطبق أيضا على الروح كما قال فى كتاب الأخلاق عن السعادة العليا للانسان ، وهى سعادة التأمل ثم قال : مثل هذه الحياة ربما كانت أرفع جدا مما يستطيعه الانسان ، لأنه لا يحيا هذه الحياة باعتباره انسانا ، بل يحياها بمقدار ما فيه من النفحة الالهية ، والفرق بين هذه النفحة الالهية وبين تركيبنا الطبيعى كالفرق بين عمل ذلك الجانب الالهى وعمل الفضائل الأخرى ، واذا كان العقل الهيا فالحياة على مثاله الهية بالنسبة الى المعيشة الانسانية ، وعلينا ألا نتبع أولئك الذين ينصحون لنا ما دمنا بشرا أن نشتغل بهموم البشر وما دمنا فانين أن نعمل عمل الفانين ، بل علينا ما استطعنا أن نعمل عمل الخالدين وأن نحفز كل عرق من عروقنا حتى نسمو الى مرتبة أرفع ما فينا — وان قل وصغر — لأقدر وأكمل من كل شىء عداه ..

« أما النفس عند أرسطو فتكاد أن تكون فى أكثر مصطلحاته مرادفة للوظيفة الحيوية ، ولهذا ينسب الى النبات نفسا نامية ، والى الحيوان نفسا شهوانية ، ويسخر من فيثاغوراس الذى يقول ان نفس الانسان قد تنتقل الى الحيوان ، ويرى أن السؤال عن العلاقة بين النفس والجسد

كالسؤال عن العلاقة بين الشمعة وصورتها ، فلولا صورة الشمعة لكانت شحما ودهنا ولم تكن شمعة ، ولولا نفس الانسان لكان الانسان لحما وعظاما وعصبا ولم يكن بالانسان » (١) ..

وابن رشد يؤمن ببقاء الروح الانسانى حيث يبقى عالم الروح كله ، فليس هو من الفلاسفة الماديين لأن هؤلاء الفلاسفة الماديين لايؤمنون بروح للانسان فى هذا العالم أو فى عالم آخر ، وليس بين الفلاسفة الالهيين من ينكر بعث الأجساد انكارا منه لقدرة الله على بعثها ولكنهم يقولون ان الأرواح المفارقة أشبه بالعالم الأعلى . ومن آمن بالله وآمن بقدرة الله وآمن بالبعث والعالم الأعلى فما هو من الملحدين (٢) ..

هذه العجالة السريعة تلخص موقف الفلاسفة من الاسلام وموقف الاسلام من الفلاسفة ، ويبدو من كلا الموقفين ان العقيدة الاسلامية لم تنقبض عن لقاء الثقافات الأجنبية عند التقائها بها فى المفاجأة الأولى ، وأحرى بهذه العقيدة الشاملة ألا تضيق بثقافة من الثقافات بعد اتصال الأمم واستفاضة العلاقة بين معارفها وعقولها فلا يزال موقف الاسلام من حكمة الحكماء فى العصور الأخيرة كموقفه منها فى صدر الدعوة الاسلامية وبعد أجيال قليلة من شيوع الدعوة بين مختلف الأقوام والشعوب . وموقفه اليوم ــ كموقفه بالأمس ــ انه لايضيق بالفلسفة لأنها تفكير فى حقائق الأشياء ، لأن التفكير فى السماوات والأرض من فرائضه المتواترة ، ولكن المذاهب الفلسفية قد يظهر فيها ما يضيق بالاسلام ويخالفه حينا بعد حين ، ولا تثريب على عقيدة تخالفها بعض العقول ، لأن العقائد لا تطالب بموافقة كل عقل على سواء أو على انحراف . وحسبها من سماحة انها لا تصد عقلا عن سواه ..

---

(١) و (٢) تراجع رسالة ابن رشد للمؤلف

العلم

العلم الذى أمر به القرآن الكريم هو جملة المعارف التى يدركها الانسان بالنظر فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق من شىء .. ويشمل الخلق هنا كل موجود فى هذا الكون ذى حياة أو غير ذى حياة ..

***

(أَوَ لَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ) .

(سورة الاعراف)

***

(أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

(سورة الغاشية)

***

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) .

(سورة البقرة)

***

فالعلم فى الاسلام يتناول كل موجود ، وكل ما يوجد فمن الواجب أن يعلم ، فهو علم أعم من العلم الذى يراد لأداء الفرائض والشعائر ،

لأنه عبادة أعم من عبادة الصلاة والصيام ، اذ كان خير عبادة الله أن يهتدى الانسان الى سر الله فى خلقه وأن يعرف حقائق الوجود فى نفسه ومن حوله ..

ولهذا قال النبى عليه السلام فى فضل هذه العبادة : فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ..

وقال : « ان فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وان العلماء ورثة الأنبياء » ..

وقال : « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » ..

وذكر له عليه السلام رجلان عابد وعالم فقال : « فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم » (١) ..

وهذا غير الأحاديث النبوية التى وردت فى فضل المعرفة والحكمة وفريضة العلم على كل مسلم ومسلمة مما اجتمعت فيه أوامر الله ونبيه على هذا المعنى المتكرر فى مواضع شتى من القرآن الكريم ومناسبات شتى من الأحاديث النبوية ..

وموقف الاسلام من العلم ــ أو من العلوم عامة ــ يتبين من موقف علمائه المجتهدين فى كل حقبة من تاريخه الذى تعاقبت به الأجيال بين القوة والضعف والتقدم والتأخر والنشاط والجمود . فقد مرت بالأمم الاسلامية عصور متخلفة جهلت فيها الاسلام نفسه فجهلت فضل العلم كما جهلت فضل الدين ، ولكن الاسلام لم يخل قط تاريخه بين المشرق والمغرب من أئمة مجتهدين استمدوا حرية الفكر من ينبوع تلك القوة الحيوية التى لا تستنزفها المحن والطوارق ، فحفظوا رسالة هذا الدين ولا فرق بينها وبين رسالة العلم فى مقصد من مقاصده ، وأوجبوا على المسلم أن يتعلم حيث وجد العلم وأن ينظر الى الحكمة كأنها هى ضالته يعنيه أن يبحث عنها ويجدها « وأينما وجدها فهو أحق بها » كما تعلم من رسول الله . واعتقد الأئمة المجتهدون جميعا انهم يؤدون أمانة الكتاب

(١) براجع الجزء الثالث من تيسير الوصول الى جامع الاصول من حديث الرسول لعبد الرحمن بن على .

فى حثهم جماعة المسلمين على طلب المعرفة حيثما وجدوها . فكل معرفة صحيحة فهى معرفة قرآنية اسلامية على اختلافهم فى تفسيرها والنسبة الى الكتاب الكريم بين فئة ترى ان المعرفة محتواة فيه اجمالا وتفصيلا . وفئة ترى ان المعرفة مطلب من مطالب المؤمن بالكتاب لايعوقه عائق منه أن يتحراها ويحققها ويهتدى بها حيثما أصابها ..

ان موقف الاسلام من العلم ـ كتابا وسنة ـ لايحتاج الى بيان بعد ما تقدمت الاشارة اليه من تلك الآيات والأحاديث ..

ولكننا نعتقد ان الدين روح ينبث فى الأخلاق والتقاليد الى جانب النصوص والأحكام ، ومن هذا الروح يظهر عمل الدين فى الواقع ولا يحسب لدين من الأديان عمل نافع فى حياة البشر ما لم يثبت له هذا العمل بين أتباعه بما يوحيه اليهم من روح يصدرون عنه فيما تعمدوه ولم يتعمدوه من أفعال أو خلائق وآداب . وروح الاسلام الذى بثه بين أتباعه يتراءى فى تاريخه المتشعب الطويل سماحة تعصمهم من تلك النقمة التى انصبت على ألوف من الخلق لاستباحتهم من المعارف والدراسات ما تحرمه عليهم معتقداتهم الدينية أو كهانهم الذين يستأثرون دونهم بتفسير تلك المعتقدات ، وربما كانت سماحة الروح الاسلامى فى عصور الجمود والجهالة أدل على فضل الاسلام من سماحة أتباعه فى عصور القوة والحضارة . لأن الدين الذى يعمل عمله فى الأخلاق والآداب وقومه جامدون محجوبون عن العلم أقمن بالهداية من دين يعمل وله سند من القوة والحضارة ، ولو كان هذا السند قائما عليه ..

وروح الاسلام فى العصور الأخيرة ظاهر فى موقف المسلمين من العلوم الحديثة كظهوره فى موقف الأئمة المجتهدين الذين حفزوا قواهم الى الاقبال على تلك العلوم والتبسط فيها واعتبار العمل بها أمرا من أوامر القرآن الكريم . فان العلوم العصرية عرفت باسم العلوم الأوروبية يوم كانت أوروبا كلها حربا على العالم الاسلامى تغير على بلاده وتستذل شعوبه وتقوض ما قام فيهم من دولة وسلطان وتعفى على البقية الباقية

حيث تخلفت للدولة والسلطان بقية تمانع في التسليم والاستسلام . فكان خليقا بهذا العداء أن يتمثل في نفوس المسلمين عداء لكل وارد من القارة الباغية وكل منسوب الى الأوروبيين المعتـدين ، ولكن علوم الحضارة الأوروبية لم تجد من المسلمين بعد المقاومة الطبيعية التي تخلقها المفاجأة أو المصادمة الأولى الا كل ترحيب وتقدير ، ولعلهم — بعد تلك المصادمة — كانوا بحاجة الى التحذير من الافراط ولم يكونوا يوما بحاجة جدية الى التحذير من الاعراض والانقباض والتفريط في تحصيل ما استطاعوه من معارف القوم ، كأنها ضالة مرتقبة هم أحق بها ممن يعتدي بها عليهم ويسومهم من أجلها التسليم والاستسلام ..

***

والافراط انما يحذّر من محاولة التوفيق بين القرآن الكريم وبين تلك العلوم في كل جليل ودقيق مما ثبت ثبوت اليقين ومما يعرضه أصحابه عرضا يحتمل المراجعة ، بل يحتمل النقض والالغاء ..

فمن الحق أن نعلم ان كتابنا يأمرنا بالبحث والنظر والتعلم والاحاطة بكل معلوم يصدر عن العقول ، ولكن ليس من الحق أن نزعم ان كل ما تستنبطه العقول مطابق للكتاب مندرج في ألفاظه ومعانيه . فان كثيرا من آراء العلمـاء التي يستنبطونها أول الأمر لا يعدو أن يحسب من النظريات التي يصح منها ما يصح ويبطل منها ما يبطل ، ولا تستغني على الدوام عن التعديل واعادة النظر من حين الى حين ..

وقليل من الأمثلة يغني عن الافاضة في شرح المنهج السـديد الذي يتوخى في الرجوع بنظريات العلم الحديث الى الآيات القرآنية ، وأنفع هـذه الأمثلة ما يقتبس من أحـدث الآراء في التـأويل والتوفيق بين النظريات وآيات الكتاب ..

فمن أصحاب التأويل في العصر الحديث من خطر له ان السـيارات السبع في المنظومة الشمسية هي المقصودة بالسماوات السبع في القرآن الكريم . وخطأ هذا التأويل ظاهر ، لأن الفلكيين الذين ذكروا السيارات

السبع أدخلوا الكرة الأرضية بينها ولم يجعلوا الأرض مقابلة للسماء ، وهذا على ان الفلكيين المتأخرين قد كشفوا عن سيارات أخرى لم تكن معروفة للأقدمين وهى فلك النجيمات وأرانوس ونبتون وبلوطس ، وكان الكشف عن هذا السيار متأخرا فلم يظهر قبل شهر مارس عام ١٩٣٠ ولا تزال فى هذا الفلك الشمسى أجرام سماوية ـ كالمذنبات والشهب ـ تدخل فى عداد السيارات ويدور بعضها حول الشمس فى مدة أقصر من مدة الدورات التى حسبت لأرانوس ونبتون وبلوطس ..

وقد تنبه لهذا الاعتراض الأستاذ هبة الله الشهرستانى صاحب كتاب الهيئة والاسلام ، فبدا له ان السيارات الشمسية مشار اليها فى القرآن الكريم بالأحد عشر كوكبا التى ذكرت فى سـورة يوسف ، ولكنه ـ لمعرفته بعلم الهيئة ـ يعلم ان السيارات بعـد الكشوف الأخيرة عشر وليست باحـدى عشرة ، وهى بلوطس ونبتـون وأرانوس وزحـل والمشترى والنجيمات والمريخ والأرض والزهرة وعطارد ، فقال مستدركا بعد الاشارة الى النجيمات : « فان قلت ان سيارات شمسنا ليست أكثر من تسع فلماذا تعد احدى عشرة .. قلت : لسنا على يقين من هذا التعليق ولكن التسعة بعد زيادة السيارات المنفلقة الى النجيمات تكون عشرة لا يضرنا عدم اندراجها الآن فى عداد السيارات لأنها كانت فى عدادها سابقا وهو كاف فى مقام اذا نظر الى ما كان لشمسنا من السيارات بقيت أو عدمت عرفت أو جهلت » ..

وكان من المشجعات حقا للفاضل الشهرستانى على اتخاذ هذا الرأى انه ذهب اليه بعد أن قرأ فى تفسير النيسابورى والزمخشرى : « ان يهوديا سأل النبى الأمى صلى الله عليه وسلم عن النجوم التى شاهدها يوسف فى المنام فقال صلى الله عليه وسلم : جريان وطارق وذيال وقابس وعمودان وفليق ومصبح وضروح وفرع ووثاب وذو الكتفين فأسلم اليهودى» (١)

«وهذه الرواية رواها ابن بابويه الصدوق فى الخصال عن جابر بطريقين

(١) ص ٢٣٢ من كتاب الهيئة والاسلام لهبة الله الشهرستانى

بينهما اختلاف يسير ، ورواها الحافظ القمى عن جابر فى تفسير قوله تعالى : « انى رأيت أحد عشر كوكبا .. » ثم سمى تلك النجوم بتغيير يسير » ..

قال الأستاذ الشهرستانى : « ان اختصاص النجوم من بين نجوم السماء لابد من أن يكون بصفة مختصة بهذا العدد اليسير لايشترك فيها سائر النجوم .. ويؤيده أيضا انطباق كثير من هذه الأسامى على سيارات شمسنا .. فالجريان أرضنا وقد ورد اطلاق الجارية على أرضنا فى غير هذا الخبر كما مر تفصيله فى المقالة الثالثة عشرة من مسألة تعدد الأرضين .. والطارق الزهرة فان الطارق كوكب الصبح على ما فى القاموس والعرب لايقصدون فى كوكب الصبح غير الزهرة قديما وحديثا . والذيال على وزن قطام يطلق فى اللغة على النحيف الفاقد للطراوة ، وعطارد أيضا كثير الجفاف فاقد الطراوة من شدة قربه من الشمس ، والقابس يطلق فى اللغة على ما يكتسب الحر الشديد من نار عظيمة ونجمة فلكان أيضا تكتسب الحرارة الشديدة من نار لانرى أعظم منها لهبا أعنى الشمس ، فان قربها مفرط من فلكان ولذلك سميت نجمة فلكان بهذا الاسم . فان فلكان كما مر اسم جبل يثير النار ومعربه بركان . والعمودان يحتمل انطباقه على مريخ فانه لاينفك عن قمرين تقوم أشعتهما عليه كالعمودين . والفيلق بمعنى المنفلق ينطبق على السيارة العظيمة التى حسبوا كونها بعد مريخ وتفسخت الى قطع صغار دوارة أعنى بها نجيمات المشترى ويؤخذ شرحها من غرة هذه المسألة . والحاصل انها قابلة للانطباق على سيارات شمسنا على النظام السابق المبدوء من أرضنا . ثم الزهرة ثم عطارد ثم فلكان ثم المريخ .. الخ .. الخ »

ويمضى صاحب كتاب الهيئة على هذا النحو فى تأويله للعدد الذى جاء فى الآية القرآنية مما يصح أن يحاط به عند التوسع فى التفسير كما ينبغى فى تفصيل الشروح الوافية ، ولكنه يذكر على سبيل الرواية ولا يذكر على سبيل الجزم بحكم القرآن فى مسألة من المسائل ، وبخاصة ما كان

منها عرضة للمراجعة والمناقشة وتعدد الآراء ، ولا نحرص على روايته الا لأن الصواب والخطأ في هذه التأويلات يدلان معا على موقف القرآن الكريم فى العلم عند المسلمين فلا حرج عندهم فىدراسة النظريات العلمية ولا مانع فى دينهم يمنعهم أن يتقبلوها كأنها مطابقة لآيات التنزيل ..

***

وشبيه بهذا التأويل رجوع بعض المفسرين بالنظرية السديمية الى آية الدخان فى سورة فصلت :

(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِين . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ فى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا) .

والنظرية السديمية فكرة قال بها سويدنبرج Swedenborg ثم فصلها لابلاس Laplace خلاصتها ان المنظومة الشمسية نشأت من السديم — أى من مادة غازية ملتهبة — بردت وتجمدت وأفلتت من جرمها الكبير أجزاء كثيرة تفرقت فدارت حول نفسها وحول الجرم الكبير بفعل الجاذبية والحركة المركزية ، وان نشأة النجوم فى السماء مماثلة لهذه النشأة وان لم تكن من قبيل المنظومات التى تشبه منظومتنا الشمسية ..

وهذه الفكرة شائعة وليست بقاطعة ، لأن الغازات المنطلقة لاتكون أشد حرارة من الأجرام المتجمعة ، اذ هى كلما انطلقت تسربت منها الحرارة فى فضاء أوسع من حيز الكرة المتجمعة ، وليست حركة الغازات بعد تجمعها موافقة للحركة التى تصورها أصحاب هذه النظرية ، فضلا عما ظهر عن حقيقة السحب التى كانت تسمى سديما ثم تحقق انها جماعات من النجوم تعد بمئات الملايين ، ولا يستطاع البت بقول جازم فى النظرية السديمية قبل البت بقول جازم فى أصل الأشعة الكونية وفى النجوم التى تنفجر لابترادها وتكاثفها وتعاظم الضغط على داخلها واندفاع باطنها

الى خارجها ، فربما كانت السدم من مادة النجوم المتفجرة ، أو كانت من تجمع الأشعة الكونية أوكان الفضاء هو مصدر هذه الحركات فى أصولها عند الذين يرون ان الفضاء والأثير شىء واحد ، وأيا كان مقطع القول فى هذه الفروض فلا ينبغى أن نعدو بها فروضا يتعاورها الثبوت والنقض على حسب الكشوف والمشاهدات التى تتيسر أدواتها مع الزمن ولا تزال اليوم فى أوائلها ..

ويتساوى الحكم على الماضى وعلى المستقبل فى هذه الفروض التى يتباعد بها الزمن كما يتباعد بها المكان فلا يقين فيهـا على الحالين ولا حسم فيها بين رأيين ما اتسعت للخلاف بين فرضين ..

ولا حرج على قائل أن يقول فى تقديره كما قال العالم المجتهد الشيخ طنطاوى جوهرى وهو يفسر الآية : « وقد شـاهدوا من تلف العوالم اليوم سـتين ألف عالم تبرز للوجود من جـديد ولا تزال على الحالة السدمية كما نقلته لك من الكتب الفرنجية فى غير هذا المكان ، ورأوا أن من تلك العوالم ما هو فى أول تكونه ومنها ماقطع مراحل فى تكوينه ومنها ما قارب التمام وهى عوالم كعالمنا الشمسى الذى نحن فيه وسيبرز للوجود كما برزت شمسنا وسياراتها وأرضها وكانت فى الأصل دخانا وستستمر فى التكوين ومدتها نوبتان ، ونحن لا نقدر أن نعرف كيف تكون النوبتان غاية الأمر أن نقول نوبة للبداية ونوبة للنهاية ويكون هذا القول من الجمـل العامة وفائدته ان التكوين لم يكن فى لحظـة واحدة .. » ..

نقول لا حرج فى هذه الفروض والتقديرات على قائل يقول بها وعليه عهدتها فى سبيل البحث عن الحقيقة ، ولكن الحرج كل الحرج أن نلزم أحدا بفروض النظرية السدمية كأنها من دعائم الايمان بآيات التنزيل ..

ونكتفى من هذه الأمثلة بمثل آخر له صـبغة تاريخية جغرافية جرى فيها التأويل نحو هـذا المجرى وان لم يرتق الأمر فيه الى منزلة النظم الفلكية أو أصـول التكوين كتعداد السيارات أو النظرية السدمية .

وذلك تأويل فاضل من معلمى الرياضة لقوله تعالى فى سورة الكهف من قصة ذى القرنين :

« حَتَّى إِذَا بَلَغَ مغرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ »

فان المعلم الفاضل يذكر التوندرا Toundras ويقول انها مياه موحلة تشغل صيفا الأجزاء السفلى من أحواض الأنهــار أوبى Obi واينسى Ienissi ولينا Lena بسيبريا تستحيل شتاء الى سهل واسع المدى من الجليد » ..

ثم يقول فى تفسير الآية : « أى فى عين ماؤها موحل أو به طين أسود أو به طين كريه الرائحة وليس يعرف فى الأقاليم ما شأن الماء فيها هكذا الا منطقة التوندرا صيفا ولا ما شأن الاتساع فيها الى حد انطباق الأفق على نهايتها حتى يلوح للنظر اختفــاء الشمس عندها الا هى . اذن ما الذى يمنع عن ارادة القرآن لها ؟.. اذا تقرر الأخذ بذلك كان ذو القرنين يرتاد سيبريا وكان فى الشرق من مجرى لينا الأسفل وسيتأيد ذلك أيضا مما يأتى فى القصص نفسه . اذ تقول الجغرافيا الرياضيــة بطول نهار الصيف فى نصف الكرة الشمالى فيكون زمنه بين ١٢ ساعة و ٢٤ ساعة فى العروض المختلفة من خط الاســتواء الى الدائرة القطبيــة الشمالية وأطول البقاع نهارا أقربها الى القطب . وتقول الجغرافيا الرياضية أيضا ان النهار يزيد على أربع وعشرين ساعة فى الأماكن التى عروضها شمالى الدائرة القطبية الشمالية اذ يكون النهار شهرا واحدا فى عرض ٢٣ ٦٧ وشهرين فى عرض ٥١ ٦٩ وثلاثة أشهر فى عرض ٤٠ ٧٣ درجة وستة أشهر فى القطب ، وتقول الجغرافيــا السياسية ان هناك مدنا مأهولة فى شمال الدائرة القطبية الشمالية وفى الشرق من منطقة التوندرا فى سيبريا مثل فركوينسك **Verko-Yansk** عرض ٦٨ درجة شمالا فيكون النهار فيها فوق الشهر ومثل اوستيانسك **Ust-Yansk** عرض ٥٦ ٧٠ درجة فيكون النهار فيهــا فوق الشهرين وأقل من الثــلاثة . ويقول القرآن الكريم : « حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل

لهم من دونها سترا » بمعنى بلغ مكانا تشرق الشمس عليه فوجدها تظهر على قوم ليس لهم من ورائها ليل . والذى يجعلنى أفهم احتمال الآية لهذا المعنى ما يأتى من النقط : أولا ، التعبير بكلمة « وجـد » الذى يشعر بما يفيد حكاية الحال أو وصف ما شاهده فى ذلك المكان . ثانيا : ان من معانى دون : وراء وبعد . ثالثا : ان القرآن عبّر عن الليل بأنه لباس ، فى قوله تعالى : « وجعلنا الليل لباسا » ، وعبّر عنه بأنه يلتصق بالنهار التصاق الجلد باللحم فى قوله تعالى : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار » . وعبّر عنه بأنه يغطى ويستر ضوء النهار بقوله تعالى : « يغشى الليل النهار » ، وبأنه يغطى ويستر ضوء الشمس بقوله تعالى : « والليل اذا يغشاها » . وعبّر بأنه يتبع النهار بقوله تعالى : « يطلبه حثيثا » . وبأنه يلتف على النهار بقوله تعالى : « يكور الليل على النهار » .. هذه المعانى المجتمعة وجهت نفسى الى الاعتقاد بارادة القرآن الكريم لهذه الحقيقة ، ولولا العلم لما تجمعت عناصر هذا المعنى ، وبالعلم تحققت آيات القرآن العظيم وبه يتحقق أيضا ما خفى من معانيه » (١) ..

ونقول : ان هذا التفسير اجتهاد حسن من المؤلف لا مانع من نظره والوقوف به دون الجزم باليقين . فانما يتقرر هذا التفسير يقينا اذا عرف ذو القرنين وعرفت رحلاته فى هذه الوجهة أو فى غيرها . والكاتب الباحث يذكر ان ذا القرنين مختلف فيه بين أن يكون الاسكندر المقدونى ، أو ملكا من ملوك حمير . وعندنا انه أقرب الى أن يكون ملكا له سلطان على اليمن وعلى وادى النهرين . فهو من الذوين كملوك اليمن ومن لابسى التاج ذى القرنين أحدهما الى الأمام ، والآخر الى الخلف كبعض ملوك العراق الأقدمين . ولكنه فرض قد تنقضه فروض أخرى تأتى بها الكشوف الأثرية مع الزمن فلا يجوز القطع به والزام المسلمين أن يتقبلوه كما يتقبلون حقائق التنزيل . وانه لمن أجمل آداب القرآن العلمية أن

---

(١) بحث فى اشارة آيتين كريمتين ، رسالة لطيفة للاستاذ محمد امين الديك معلم الرياضة .

يذكر المجتهد أمثال هذا التفسير ويتبعه بتفويض العلم الى الله : « والله أعلم ، وفوق كل ذى علم عليم » .. ان القرآن الكريم يقول : ان الكتاب لم يفرط فى شيء كما جاء فى سورة الأنعام :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) .

وأكثر المفسرين على ان الكتاب هنا هو اللوح المحفوظ كما جاء فى تفسير ابن كثير : « أى الجميع علمهم عند الله ولا ينسى واحدا من جميعها من رزقه وتدبيره سواء كان بريا أو بحريا كقوله :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .

ولكن بعض المفسرين ــ ومنهم الرازى ــ يفسر الكتاب هنا بالقرآن الكريم ، ولا نزاع بين القولين فى تأويل المقصود باشتمال الكتاب على كل شيء ، فانهم يعنون انه يهدى الانسان الى كل شيء يحتاج اليه فى دينه ودنياه ومنه طلب العلم والقوة والفضيلة ، ولا يقول أحد ان الكتاب يشتمل على كل شيء تفصيلا بل اجمالا فى علم الله لا يعلمه الناس الا بمقدار . فمن فهم من ذلك الاجمال معنى فهو مسئول عنه لايسأل عنه أحد غيره الا بحجته وبرهانه ، ويتفق الاجماع الذى لا نزاع فيه على الأمر بالعلم والمؤاخذة على التفريط فيه ..

وأيا كان الوجه فى هذه المسألة ، فالقسطاس المستقيم فيها بيّن والاجتهاد فيها ينتهى الى حد قائم لا شبهة عليه . فان الاسلام يأبى كل علم يختلط بأسرار الكهانة والكهان ، فكل علم يؤمر به المسلم فهو علم صراح بغير حجاب ولا تنجيم ، يهتدى اليه كل مأمور بالنظر قادر عليه ..

الفن الجميل

كثرة الانصاب والتماثيل فى المعابد والبيع ليست بالمقياس الصحيح لنصيب الفنون الجميلة من الدين الذى يدان به فى المعبد أو البيعة . لأن المعابد الوثنيـة كانت تتسع للأنصاب والتماثيل وليست بالنموذج الصالح للأديان فى الهداية الى معانى الجمال والحض على الفنون الجميلة ، وهى فى جملتها لا تخلو من العبادات البشعة والشعائر القبيحة والعقائد التى لا تجتمع والجمال فى شعور واحد ..

انما يقاس نصيب الفن الجميل من الدين بنظرة الدين الى الحياة ..

فلا يقال عن دين انه يحيى الفنون الجميلة أو يتقبل احياءها اذا كانت له نظرة زرية الى الحياة وكان ينظر اليها كأنها وصمة زرية ، والى الجسد ومتاعه كأنها رجس مرذول وانحراف بالانسان عن عالم الروح والكمال

ولا يقال عن دين انه يزدرى الفن الجميل اذا كان الجمال من مطالبه وكانت نعمة الحياة مقبولة فى شرعة المتدين به بل واجبة عليه ..

والاسلام بين الأديان قد انفرد بقبول نعمة الحياة وتزكيتها والحض عليها وحسبانها من نعمة الله التى يحرم على المسلم رفضها ويؤمر بشكرها

وغيره من الأديان بين اثنتين : فاما السكوت عن التحريم والايجاب معا أو التصريح القاطع بالتحريم والتأثيم ..

أما الاسلام فانه يحل الزينة ويزجر من يحرمها ، ويصف الله بالجمال ويحسب الجمال من آيات قدرته وسوابغ نعمته على عباده ..

ففى خلق الأرض زينة وفى خلق السماء زينة ..

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) .

« سورة الكهف »

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ) .

(سورة الحجر)

***

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا)

(سورة ق)

***

وفى خلائق الله جمال يطلبه الانسان كما يطلب البأس والمنفعة .

« وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ » .

(سورة النحل)

***

وكل من حرّم هذه الزينة على الناس فهو آثم لايقضى فى تحريمه بأمر الدين ..

« قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » .

(سورة الاعراف)

***

والزينة والعبادة تتفقان ولا تفترقان ، بل تجب الزينة فى محراب العبادة كأنها قربان الى الله حيث لا قربان فى الاسلام ..

» يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ » .

(سورة الاعراف)

***

والسنّة النبوية فيما روى عنه عليه السلام وفيما أثر عن حياته مرددة كلها لمعانى الآيات القرآنية فى تزكية النعمة واباحة الزينة والنهى عن تحريم الأخذ بنصيب من الحياة الدنيا والتعبد لله بتعظيم محاسن خلقه ومحبة آيات الجمال فى أرضه وسمائه ..

قال عليه السلام : ان الله جميل يحب الجمال ..

وقال فيما ورد من تفسير قوله تعالى :

« وَيَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ » .

انه هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن ..
وقال : من له شعر فليكرمه ..
وقال : ان الله يحب كل جيد الريح كل جيد الثياب ..
وأخبره بعض أصحابه انه يقوم الليـــل ويصوم النهـــار فقال له :
« لا تفعل .. صم وأفطر وقم ونم فان لجسدك عليك حقا .. »

وقد تواترت أمثال هذه الأحاديث فى الأثر واختلفت فيها الروايات ولكنها لم تختلف قط فى معناها ومؤداها ، لأن حياة النبى الكريم كلها مصداق للايمان بحق الجسد مع حق الروح ..

والدين الذى ينظر الى الحيـــاة والجمال هذه النظرة القويمة السوية لا يسوغ لأحد أن يظن به تحريما لشىء من الفن الجميل أو نهيا عن شىء يجمل الحياة ويحسن وقعا فى الأبصار والأســـماع . وانما سبقت الظنة الى هذا الخطأ لتشديد الاسلام فى منع عبـــادة الأوثان ومنع ما يصنع لعبادتها من التماثيل والأنصاب ، ولم ترد فى الكتاب كلمة تنهى عن عمل من أعمال الفن الجميل ، ، ولم يثبت عن النبى عليه السلام قول قاطع فى تحريم صنعة غير ما يصنع للعبادة الوثنية أو ما تخشى منه النكسة اليها فى نفوس أتباعها ومن يفتنون بجهالتها ..

روى الأزرقى فى أخبار مكة : « ان النبى عليه السلام لما دخل الكعبة بعد فتح مكة قال لشيبة بن عثمان : ياشيبة .. امح كل صورة فيه الا ما تحت يدى .. قال فرفع يده عن عيسى ابن مريم وأمه ..

وهذه الرواية يقابلها ان النبى عليه السلام لم يدخل الكعبة الا بعد أن أزيلت منها الصور القائمة فيها أو المنقوشة عليها ، فان حقت الرواية وصح انه عليه السلام قد ترك بعض الصور وأمر بازالة بعضها فليس فى ذلك تحريم للصور على اطلاقهـــا ، وأن حقت الرواية الأخرى وكانت الصور قد أزيلت من الكعبة بأمره عليه السلام قبل دخوله اليها فما فعله صلوات الله عليه فهو الحكمة التى تقضى بها ضرورة الحيطة فى أوائل كل دعوة تخشى فيها النكسة الى ما سلفها من دعوات محظورة . وما من

دعوة فى عصرنا هذا تستغنى عن مثل هذه الحيطة الواجبة فيما تحذره من نكسات العهود الغابرة ..

على ان الخلاف فى صور الكعبة ينقطع بما لاشك فيه منآياتالقرآن ، وذلك فيما ورد من بيان نعمة الله على سليمان عليه السلام ولا انكار عليه بل هو موجب للشكر من القوم جميعا كما جاء فى هذه الآيات :

« يَعْمَلُونَ لَهُ مَايَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وقليلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ » .

والقاعدة العامة فى الاسلام انه لا تحريم حيث لا ضرر ولا خشية من الضرر . فأما مع المنفعة المحققة فلا تحريم ولا جواز للتحريم ، لأنه فوات للمصلحة ونهى عن المباح ..

وممن تناول البحث فى موضوع التصوير من المحدثين صاحب مجلة « الهداية » الأستاذ عبد العزيز جاويش حيث يقول : « انه ليس المراد تعميم التحريم فى كل زمان أو كل أمة . فانه لا معنى لذلك الحجر متى أمن جانب العبادة والتعظيم اللذين اختص الله بهما . وكيف يحرم التصوير مطلقا مع انه قد يكون سببا فى حفظ حقوق شرعية كما هو الشأن فى صور الغرقى والأموات المجهولين التى تعرضها الحكومة على الملأ حتى يعرفهم ذووهم فتقوم هناك أحكام المواريث وأحكام الزوجية وحلول الديون المعجلة ونحو ذلك وقد يكون التصوير سببا فى تحذير الأمة من اللصوص المحتالين والنصابين المستترين عن أعين الحكومة ، فتنشر صورهم للملأ حتى يقتفوا أثرهم ويرشدوا الحكومة الى معاهدهم ، ومن الصور ما تعرف به أسرار حكم الله تعالى فى خليقته كما فى صور الحيوانات وأجزائها التى تحتويها كتب التاريخ الطبيعى والتشريح ، كما انه من ضروب التصوير ما يساعد على علاج المرضى بعلل باطنة أو المصابين ببنادق الرصاص ونحوها كالتصوير بأشعة رنتجن الشهيرة . ومن القواعد الأصولية الشرعية ان للوسائل أحكام الغايات

والمقاصد . فاذا كانت الصور تتوقف عليها بعض أحكام شرعية أو معالجات طبية أو كشف مسائل علمية كان اتخاذها ولاشك من المرغوب فيه شرعا وان كانت لمجرد الزينة واللهو المباح كان اتخاذها مباحا . فأما اذا كانت تتخذ للتعظيم والعبادة والتبرك ونحو ذلك فهى حرام قطعا معذب صانعها ومعذب متخذها .. »

ولا نعلم أحدا من المسلمين خاصتهم وعامتهم يزوى وجهه أمام تحفة من تحف الفن حيث تؤمن النكسة الى العبادات الوثنية ، وقد كان الشيخ محمد عبده ـ الامام المصلح المجتهد ـ يزور معاهد الفن ويكتب عنها ويستحسن حفظ آثارها النادرة وتحفها النفيسة لأنها من قبيل حفظ العلم وتصوير خفايا النفس الانسانية ، ومما كتبه فى ذلك فصل من فصول الرحلات بتوقيعه فى تلك الرحلات نشرته مجلة « المنار » عن دور الصور والآثار فى جزيرة صقلية يقول فيه :

« ولهؤلاء القوم حرص غريب على حفظ الصور المرسومة على الورق ويوجد فى دار الآثار عند الأمم الكبرى ما لايوجد عند الأمم الصغرى كالصقليين مثلا يحققون تاريخ رسمها واليد التى رسمتها ، ولهم تنافس فى اقتناء ذلك غريب ، حتى ان القطعة الواحدة من رسم روفائيل مثلا ربما تساوى مائتين من الآلاف فى بعض المتاحف ولا يهمك معرفة القيمة بالتحقيق ، وانما المهم هو التنافس فى اقتناء الأمم لهذه النقوش وعد ما أتقن من أفضل ما ترك المتقدم للمتأخر . وكذلك الحال فى التماثيل ، وكلما قدم المتروك من ذلك كان أغلى قيمة وكان القوم عليه أشد حرصا . هل تدرى لماذا ؟.. اذا كنت تدرى السبب فى حفظ سلفك للشعر وضبطه فى دواوينه والمبالغة فى تحريره ، خصوصا شعر الجاهلية وما عنى الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه ، أمكنك أن تعرف السبب فى محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل ، فان الرسم ضرب من الشعر الذى يرى ولا يسمع ، والشعر ضرب من الرسم الذى يسمع ولا يرى . ان هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال

الأشخاص فى الشئون المختلفة ومن أحوال الجماعات فى المواقع المتنوعة ، ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية ، ويصورون الانسان أو الحيوان فى حال الفرح والرضى والطمأنينة والتسليم ، فهذه المعانى المدرجة فى هذه الألفاظ متقاربة لايسهل عليك تمييز بعضها من بعض ، ولكنك تنظر فى رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهرا باهرا ، ويصورونه مثلا فى حالة الجزع والفزع والخوف والخشية ، والجزع والفزع مختلفان فى المعنى ولم أجمعهما هنا طمعا فى جمع عينين فى سطر واحد ، بل لأنهما مختلفان حقيقة . ولكنك ربما تعتصر ذهنك لتحديد الفرق بينهما وبين الخوف والخشية ولا يسهل عليك أن تعرف متى يكون الفزع ومتى يكون الجزع ، وما الهيئة التى يكون عليها الشخص فى هذه الحال أو تلك . فأما اذا نظرت الى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت فانك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك كما يتلذذ بالنظر فيها حسك اذا نزعت نفسك الى تحقيق الاستعارة المصرحة فى قولك « رأيت أسدا — تريد رجلا شجاعا » فانظر الى صورة أبى الهول بجانب الهرم الكبير تجد الأسد رجلا أو الرجل أسدا ، فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم فى الحقيقة وشكر لصاحب الصنعة على الابداع فيها . ان كنت فهمت من هذا شيئا فذلك بغيتى ، وأما اذا لم تفهم فليس عندى وقت لتفهيمك بأطول من هذا ، وعليك بأحد اللغويين أو الرسامين أو الشعراء المفلقين يوضح لك ما غمض عليك اذا كان ذلك من ذرعه » ..

ثم يستطرد الأستاذ الامام الى الحكم الشرعى فى هذه الصور والتماثيل فيقول : « ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام ، وهى : ما حكم هذه الصور فى الشريعة الاسلامية اذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر فى انفعالاتهم النفسية أو أوضاعهم الجسمانية .. هل هذا حرام أو جائز أو مكروه أو مندوب أو واجب ؟ فأقول لك ان الراسم قد رسم والفائدة محققة لانزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد محى من الأذهان . فاما أن تفهم الحكم من

نفسك بعد ظهور الواقعة واما أن ترفع سؤالا الى المفتى وهو يجيبك مشافهة . فاذا أوردت عليه حديث « ان أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون » أو ما فى معناه مما ورد فى الصحيح فالذى يغلب على ظنى انه سيقول لك ان الحديث جاء فى أيام الوثنية وكانت الصور تتخذ فى ذلك العهد لسببين : الأول اللهو . والثانى التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين ، والأول مما يبغضه الدين والثانى مما جاء الاسلام لمحوه ، والمصور فى الحالين شاغل عن الله أو ممثل للاشراك به . فاذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر فى المصنوعات ، وقد صنع ذلك فى حواشى المصاحف وأوائل السور ولم يمنعه أحد من العلماء مع ان الفائدة فى نفس المصاحف موضع النزاع . وأما فائدة الصور فمما لا نزاع فيه على الوجه الذى ذكر » ..

***

على ان شبهة العبادة الوثنية تزول عند النظر الى فن السماع ــ أو فن الغناء والموسيقى ــ لأنه من الفنون التى لا غبار عليهـا ولا تحريم لشىء منها الا ما كان ممتزجا بالخلاعة أو مثيرا للشهوات فالتحريم هنا لا يخص الفن الجميل بل يعم الخلاعة والشهوة وكل ما يمتزج بالمحظورات على اختلافها ، وقد يحرم اللباس الخليع أو الحديث الخليع فلا يقال ان هذا التحريم يمنع الكساء أو يمنع الكلام ، ولكنه يمنع ما هو ممنوع ويبيح ما عداه ..

والمسلمون مأمورون بترتيل القرآن لايرون فى قداسته ما ينهاهم أن يقرأوه ويسمعوه مرتلا فى المساجد والمحاريب ، بل يرون فى ذلك معوانا على بلاغ أثره وطمأنينة الاصغاء اليه ، وأحرى أن يكون ذلك شأن ما يطرق الأسماع منغوما من سائر الكلام ..

ولو كان فى الغناء ما يكره أو يعاب لكان أولى الناس أن يمنعه رجل كعمر بن الخطاب فى صرامته وشـدته على نفسه وعلى غيره فى رعاية أحكام دينه ، ولكنه رضى الله عنه كان يبيح الغناء ويدعو اليه ، ومن

أخباره في ذلك ما رواه نائل مولى عثمان بن عفان قال : « خرجت مع مولاى عثمان بن عفان فى سفرة ســافرناها مع عمر فى حج أو عمرة ، وكان عمر وعثمان وابن عمر أيضا ، وكنت وابن عباس وابن الزبير فى شبان معنا ، ومعنا رباح النهرى فقلنـا له ذات ليلة : احد لنا . قال : مع عمر ؟.. قلنا : احد فان نهاك فانته . فحدا ، حتى اذا كان السحر قال له عمر : كف . فان هذه ساعة ذكر . فلما كانت الليلة الثانية قلنا : يا رباح . انصب لنا نصب العرب ، قال : مع عمر ؟.. فقلنا كما قلنـا بالأمس : ان نهاك فانته . فنصب لنا نصب العرب حتى اذا كان السحر قال له عمر ما قاله أمس . فلما كانت الليلة الثالثة قلنا له : يا رباح . غننا غناء القيان . فقال مع عمر ؟.. قلنا : ان نهاك فانته . فغنى ، فوالله ما تركه أن قال له : كف . فان هذا ينفر القلوب » ..

وجاءه قوم فقالوا : ان لنا اماما يصلى بنا العصر ثم يغنى بأبيات . فقام معهم الى منزله واستنشده تلك الأبيات فأنشده الأبيات التالية :

وفـؤادى كلمـا نبهتـه عاد فى اللـذات يبغى تعبى
لا أراه الدهر الا لاهيا فى تماديه فقد برّح بى
يا قرين السوء ماهذا الصبا ؟ فنى العمر كذا فى اللعب
وشباب بان منى ومضى قبل أن أدرك منه أربى
نفس الاكنت ولاكان الهوى اتقى المولى وخافى وارهبى

فجعل عمر يقول : نفس لا كنت ولا كان الهوى ، وصار يبكى . ثم قال : من كان منكم مغنيا فليغن هكذا ..

وروى عنه انه خرج للحج ومعه خوات بن جبـير وأبو عبيـدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف فسأل القوم خواتا أن يغنى من شعر ضرار فقال عمر : دعوا أبا عبد الله فليغن من بنيات فؤاده . قال خوات : فما زلت أغنيهم حتى كان السحر . فقال عمر : ارفع لسانك ياخوات .. فقد أسحرنا ..

ومن قال ان ابن الخطاب كان أشد الخلفاء صرامة فى النهى عن المحظور ثم يبالغ فى وصفه ولم يقل عنه ما يأباه أو يأباه له عارفوه ومحبوه ، وها هو ذا يستمع الى الغناء بالشعر فيستمع الى فنين من أعم الفنون الجميلة بين الناس ، ولا ينكر الغناء لذاته ولا الشعر لذاته ، وانما ينكرهما اذا اشتملا على لهو « ينفر القلوب » كما قال ..

ولعل خاطرا يخطر على البال فى أمر الشعر لما ورد عن الشعراء فى القرآن الكريم وانهم يتبعهم الغاوون وفى كل واد يهيمون ..

ولكن هذه الصفة انما قيلت فى الرد على المشركين الذين كانوا يقولون عن النبى عليه السلام تارة انه ساحر ، وتارة انه شاعر ، ففيها بيان للفرق بين النبوة والشعر وبين الكلام الذى يهدى الى الرشد والكلام الذى تتبعه الغواية ، والرجوع الى الآية يدل على الشعراء المقصودين بتلك الصفة فلا يوصف بها شاعر مؤمن يعمل الصالحات ..

(وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالَا يَفْعَلُونَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) .

وقد حدث عند نزول هذه الآية ــ كما روى أبو الحسن مولى تميم الدارى ــ ان حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك جاءوا الى رسول الله وهم يبكون فقالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية انَّا شعراء .. فتلا النبى صلى الله عليه وسلم : « الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ..

فليس الشعر منهيا عنه لأنه شعر ولا لأنه كلام موزون ، اذ قد يتفق الوزن لبعض آيات الكتاب كما جاء فى تفسير روح المعانى للسيد محمود الألوسى منسوبا الى بعض المتأولين اذ يقول : انهم تأولوا عليه ما جاء فى القرآن مما يكون موزونا بأدنى تصرف كقوله تعالى :

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ) .

ويكون بهذا الاعتبار شطرا من الطويل ، وكقوله سبحانه :

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى) .

ويكون من المديد ، وكقوله عز وجل :

(فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ) .

ويكون من البسيط وقوله تبارك وتعالى :

(أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ) .

ويكون من الوافر . وقوله جل وعلا :

(صلُّوا عَلَيْهِ وسَلِّمُوا تَسليماً) .

ويكون من الكامل ، الى غير ذلك مما استخرجوه من سائر البحور . وقد استخرجوا منه ما يشبه البيت التام كقوله تعالى :

(وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) .

فليس الوزن الذى يتفق أن يكون فى الكلام المرسل منهيا عنه وليس الشعر منهيا عنه ، لأنه وزن منظوم . وانما المنكر فى الشعر ما ينكر فى كل كلام يجرى بالسوء أو يغرى به ويستدرج النفوس اليه . وما عدا ذلك من الشعر فقد كان يسمعه النبى عليه السلام ويجيز عليه ، وكان يحفظه الخلفاء الراشدون وأئمة المسلمين ، وقد نظمت أحكام الفقه الاسلامى فى بحور موزونة كما نظمت متون العلم واللغة فى هذه البحور ، فلا حرج فى هذا الفن الجميل ما لم يكن حرجا يعرض للفنون وغير الفنون ..

ويقاس الحديث من الفنون على الفنون التى أبيحت فى صدر الاسلام ، فما استحدث من قبيلها بعد ذلك فهو مباح مثلها ، وما لم يكن معهودا يومئذ فالمعول فيه على حكم الضرورة والمنفعة واجتناب الضرر والفتنة ، يباح ما تدعو اليه الضرورة ولا ضرر فيه ويحظر ما يخشى منه الضرر ولا حاجة اليه ولا مسوغ لوجوده ، وقد حدث مثلا فى عهد النبى عليه

السلام انه شهد زفن الحبشة ـ أى رقصها القومى ـ وشهدته معه السيدة عائشة رضى الله عنها فما كان من قبيل هـذه المناظر العامة فلا جناح عليه ..

***

وموضع المراجعة فى فن التمثيل الحديث ما ورد فى القرآن الكريم من نهيه المرأة أن تتبرج تبرج الجاهلية وأن تبدى زينتها للغرباء الا ما ظهر منها ، وقد أسهبت كتب التفسير فى بيان المقصود بما ظهر من الزينة ، ولخصها الامام النسفى فقال : « الا ماظهر منها أى ماجرت الجبلة والعادة على ظهوره وهو الوجه والكفان والقدمان ففى سترها حرج بين ، فالمرأة لا تجد بدا من مزاولة الأشياء بيديها ومن الحاجة الى كشف وجهها خصوصا فى الشهادة والمحاكمة والنكاح وتضطر الى المشى فى الطرقات وظهور قدميها وخاصة الفقيرات منهن » ..

وفى تفسير الحافظ بن كثير حديث مرفوع الى السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : « ان أسماء بنت أبى بكر دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال : يا أسماء . ان المرأة اذا بلغت المحيض لم يعلم أن يرى منها الا هذا وأشار الى وجهه وكفيه»

والمتفق عليه ان المرأة لايباح لها أن تبدى زينتها الا للضرورة مع أمن الضرر والفتنة ، فاذا ثبتت ضرورة لظهورها فى حالة من الحالات تمتنع فيها الفتنة ويؤمن فيها الضرر فحكم الشرع فى هـذه الحالة معلوم لا خلاف عليه ..

وليس من الحق ان فن التمثيل يضيق بالمباح المقبول من الشريعة الاسلامية ، وانه لايحيا ولا يزدهر بغير ترخص فيها وخروج عنها . فان تاريخ التمثيل الحديث يشهد بمخالفة هـذا الزعم للحقيقة الواقعة لأن التمثيل قد عاد الى الحياة ونما وازدهر فى القرن السابع عشر يوم كانت أزياء النساء فى أوروبا لا تبدى من المرأة غير الوجه والكفين ، وقد تحجب الكفين بالقفاز أو الأكمام الطوال ، وكانت ملابس المرأة يومئذ

كملابس القرون الوسطى تفيض حول وسطها حتى تستر قوامها ، وربما تعذر عندهم فى ابان يقظة التمثيل أن تظهر المرأة على المسرح لجهلها بالقراءة وعجزها عن الحفظ والفهم عن الملقن على مقربة منها ، وان لها من مباحات الاسلام رخصة أيسر من هذه الرخصة ومجالا أرحب من هذا المجال ..

وربما ضاقت بالتمثيل عقيدة تعلم أبناءها نبذ الحياة والحذر من النظر فى حكمة التحريم والتحليل .. أما الدين الذي يعلم من يدين به أن يحب الحياة وأن يحتكم الى فكره فلا خوف منه على هذا الفن أو على سواه من فنون الحياة والجمال ..

المعجزة

يروى عن « نابليـون بونابرت » انه سـأل العالم الفلكى المشهور « لابلاس » : أين تجد مكان العناية الالهية فى نظام السماوات ؟ .. فأجابه « لابلاس » : لست أدرى مكانا لما يسمى العناية الالهية فى ذلك النظام يا صاحب الجلالة ..

يريد العـالم الفلكى انه يستطيع أن يفسر دوران الأفلاك بقوانين الحركة وخصائص المادة الطبيعية ولا حاجة عنده بعد ذلك الى تفسير ..

وغير هذا الجواب كان أحرى برجل فى علم « لابلاس » ، لأن العالم أحرى أن يعرف موضع العجب من هذه المشاهدات المألوفة ، فليست ألفته لها مما يصح أن يبطل العجب منها ولو تتابعت أمامه ألوفا من المرات بعد ألوف ..

ترى لو كان « لابلاس » فى كون آخر وتحدث اليه أحد الخـارجين من كوننا هذا عن دوران الكواكب على هذا النظام وخصائص المادة على هذه الوتيرة — أتراه كان يتوقع ما يحدثه عنه قبل سماعه ويرى انه شىء من قبيل تحصيل الحاصـل وتكرير المعاد مستغنى عن الشرح والسؤال ؟ ..

ترى لو قيل لذلك العالم الفلكى فى أوائل الأزل أن يصـور على الخريطـة حركة قابلة لتنظيم الفلك فى دورانه وجواذبه ودوافعه أكان يرتجل هـذه الصـورة ارتجالا ولا يتردد بينها وبين شتى الفروض والتقديرات .. ؟

ان نظام الفلك مشاهدات متكررة وليس بالمستلزمات المنطقية لو لم تكن هنالك قدرة تستلزمها وتختارها لتكون على هذا النحو ولا تكون على سواه ..

ان عقولنـا تستلزم ان الأصغر والأكبر من الأشياء لايتساويان ، ولكنها لا تسـتلزم أن تأتى الحركة من الحرارة أو تأتى الحـرارة من الحركة أو تمضى المتحركات دائرة فى بعض الأحوال وساكنة فى غيرها من الأحوال ..

هذه مشاهدات وليست بمستلزمات ولا بديهيات ، وكل ما يحدث على صورة منها ولا يحدث على صورة أخرى فهو محتـاج الى التفسير غير مستغن بنفسه عن الفهم والتعليل ..

ونحن نضحك من الطفل الذى تسأله : لماذا انكسر الاناء ؟.. فيقول لأنه وقع ، وتسأله لماذا ينكسر اذا وقع ؟ .. فيقول : هكذا .. ولايكلف عقله سؤالا بعد هذا الجواب ..

« وهكذا » هو جواب « لابلاس » فى محصوله لسؤال نابليون ..

هل من الحتم أن ينكسر الاناء اذا وقع ؟ .. وهل من الحتم أن يدور الكوكب اذا تحرك وانجذب ؟ .. وهل من الحتم مرة أخرى اذا دار أن يتركب من دوراته نظام وأن تنشأ فى هذا النظام حياة ؟ ..

هكذا ولا شىء غير هكذا فى رأى علامة الفلك الكبير ، وعلامة الفلك الكبير ها هنا طفل صـغير يستغنى عن تفسير كسر الاناء باعادة كلمة واحدة هى التكسير ..

لماذا يدور الفلك هذا الدوران ؟ ..

لأنه يدور هذا الدوران ، ولابد أن يدور هذا الدوران ، ولا سبب لذلك الا لأننى رأيته يدور هذا الدوران ..

ومن قال هذا فهو هازل يستخف بالأعجوبة التى أمام عينيه لمجرد كونها أمام عينيه ، كأنه يريد أن تكون الأعجوبة مما لايراه ولا يراه انسان ..

وان أجهل الجهـلاء ليتعلم من القرآن الكريم فهما أعمق من فهم « لابلاس » وموقفا أمام مشاهد الكون أصدق من موقفه المحدود . فانه يتعلم من كتابه ان المعجزة قائمة حواليه حيثما جال بعينيه ، ويؤمن

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) .

فكل ما نراه ونكرر رؤيته فهو معجزة تدعو الى العجب ..

ولكنها المعجزة التى يعمــل العقل لفهمها وليست هى المعجزة التى تبطل عمل العقول ..

والاســلام دين المعجزات التى يراها العقل حيثما نظر وليس بدين المعجزات التى تكف العقل عن الرؤية وتضطره بالافحام القــاهر الى التسليم ..

وعلينا أن ندرك ان المعجزة معجزتان كى نطلب المعجزة التى ينبغى أن تطلب ، ونتورع عن طلب المعجزة التى لا تجدى أحدا من العقلاء ..

فالمعجزة التى تتجه الى العقل موجودة يلتقى بها من يريدها حيثما التفت اليها ، ولكنها غير المعجزة التى تقنع من لايقتنع بتفكيره ، ومن لم يقتنع بتفكيره فلن تهديه المعجزة من ضلال ..

والاسلام دين متناسق مستجيب للفهم والموازنة بين الأمور ، فهو دين المعجزات فى كل شيء ، ولكنه ليس بدين المعجزة التى تفحم العقل ولا تقنعه ، لأنه دين العقل .. والتفكير فريضة فيه ..

ويؤمن المسلم بالنواميس الكونية أشد من ايمان الدعاة الى تقرير تلك النواميس باسم العلم العصرى أو العلوم التجريبيــة ، لأنه يؤمن بأن النواميس سنّة الله فى خلقه

(وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلَا) .

ولكنه يؤمن كذلك بامكان المعجزة لأنها ليست بأعجب مما هو حادث مشاهد أمام الأبصار والبصائر ، وليست هى بمحتاجة الى قدرة أعظم من

القدرة التي نشهد من بدائعها ما يتكرر أمامنا كل يوم وكل ساعة . وقد تسمى المعجزات فى عرف المسلم بخوارق العادات فلا يجوز لأحد أن ينكرها لأننا تعودنا فيما علمناه فى هذا العصر على الأقل أمورا كثيرة كانت فى تقدير الأقدمين من خوارق العادات وهى اليوم من الممكنات المتواترة ، وما جاز فيما نعلمه يجوز فيما نجهله وهو أكثر من المعلوم لنا الآن بكثير ..

فمما كان من خوارق العادات عند الأقدمين أن تبلغ الحركة ما تبلغه من السرعة فى تجاربنا العصرية ، وأن يبلغ المكان ما يبلغه من صغر الأمد فى كثير من تلك التجارب المحسوسة . فأصبحنا نعد من السرعة المحسوسة ما يزيد على عشرات الملايين من الأميال فى الثانية الواحدة ، ونحصر من المكان ما يقل عن جزء من مليون من القيراط تعيش فيه الأجسام والخلايا الحيـة وتنمو منه جمهرة الخلائق وربوات الأفلاك والأجرام ، وأصبح القول بأن هذا الحدث يحدث فى جزء من ألف جزء من الثانية وينتشر على آفاق من الفضاء تحسب بألوف الألوف من الأميال فى الجهـات الأربع ، وقد كان هذا مستحيلا فى رأى المحدودين من عبـاد العادات ومنكرى الخوارق فيما تعودوه ، وبعضـهم معدودون من الفلاسـفة المفكرين ، وأصح منهم بديهة وأسلم منهم تقديرا جاهل يؤمن بالمعجزة ويؤمن معها بخفايا الخلق وأسرار الحياة واتساع التقـدير والاحتمال لكثير من الغرائب والطوارق والممتنعات فى حكم الواقع والعيان . فان العقل الانسانى لايصاب بآفة أضر له من الجمود على صـورة واحدة يمتنع عنده كل ما عداها . فاما أن تكون الأشياء عنده كما تعودها وكرر مشاهدتها واما أن تحسب عنده فى عداد المستحيلات ، وأدنى من هذا العقل الى صحة النظر عقل يتفتح لاحتمال وجود الأشياء على صور شتى لايحصرها المحسوس والمألوف ..

فليس من المستحيل عقلا أن يتم فى ثانية ما تعودنا أن يتم فى عام ، ولا من المستحيل عقلا أن يحدث فى قيد الشعرة ما كنا نظن انه لايحدث

فى غير الآفاق الفساح ، وكذلك لايستحيل عقلا أن ينعكس هذا فيتم فى الزمن الطويل والامد الفسيح ما تعــودنا أن نراه فى الزمن القصير والأمد الصغير ..

ومن الأمثلة المقربة لهذا الاحتمال أن ننظر الى الصور المتحركة كيف ينمو فيها النبات بطيئا فى أيام وهو يرتفع أمامنا سريعا فى لمحات ، وان ننظر الى قوائم الفرس كيف يرتفع الحافر من الأرض فيستغرق من الوقت على اللوحة البيضاء مثل ما يستغرقه العدو الى نهاية المضمار . وانما نستفيد من هذا النظر أن يأخذ العقل من الحس المشاهد درسا يتعلم منه ان اختــلاف وقوع الحــادث الواحد فى الزمان والمكان شىء والقول باستحالة وقوعه فى غير هيئة واحدة شىء آخر ..

فلا استحالة فى خوارق العادات ، ومن قال باستحالتها لزمه الاثبات لأنه يدعى الاستحالة عقلا بغير دليل ..

« وما من أحــد يجرؤ ، مثلا ، على أن يقول باسم العلم ان الالهام بالغيب مستحيل . لأنه اذا جزم باستحالته وجب عليه قبل ذلك أن يجزم بأمور كثيرة لايستطيع عالم أمين أن يقررها معتمدا على حجة أو سند قويم . ويجب على العالم الذى يجزم باستحالة الالهام بالغيب أن يقرر لنا انه عرف حقيقة الزمن وعرف ــ من ثم ــ حقيقة المستقبل ، ويجب عليه مع ذلك أن يقرر تجريد الكون من عنصر العقل غير عقل الانسان والحيوان . فما هى حقيقة الزمن ؟ .. هل هو موجود فى الماضى والحاضر والمستقبل ، أو هو يوجد لحظة واحدة ثم يزول ؟ .. وما هى هذه اللحظة الواحدة ؟ .. وما مدى احاطتها بالبعيد والقريب من الأمكنة الشاسعة فى هذه الأكوان ؟ .. وهل المستقبل موجود الآن أو هو عدم يوجد لحظة بعد لحظة ؟ .. وكيف يوجد العدم بعد أن لم يكن له وجود ؟ ..

« ان العالم الذى يجزم فى قول من هذه الأقوال باسم العلم يدعى على العلم كذبا وينم عن عقل ضيق لايصلح للنظر فى هذه الآفاق .. واذا كنا لا ننفى وجود المستقبل نفيا مقطوعا به مستندا الى حجة أو بينة

فالغيب غير مستحيــل والعلم به لايدخــل فى باب الممنوعات أو غير المعقولات ، واذا كان عنصر العقل فى هذه الأكوان أكبر من أن يحصره رأس الانسان وحده فانتقال المعرفة منه الى عقل الانسان جائز جدا أو جـائز على الأقل كجواز الانتقــال بين الأفكار على تبــاعد الأمكنة والعقول » (١) ..

***

واذا كان العقل الانسانى لاينفى بالدليل المقنع وجود العقل الأبدى فليس له أن يجزم باستحالة شىء مما يستطيعه ذلك العقل الأبدى من العلم بالأبد كله أو من القدرة على الايحاء به الى من يشــاء أو من القدرة على خوارق العادات ، لأن الخوارق بالنسبة اليه كالعادات ، ولأن التغيير عنده كالانشاء والابداع ، اذ ليست قدرته على تغيير ما حدث دون قدرته على الخلق لأول مرة فى زمن بعيد أو زمن قريب ..

والاســلام يضع المعجزة فى موضعها من التفكير ومن الاعتقاد فهى ممكنة لا استحالة فيها على الخالق المبدع لكل شىء ، ولكنها لا تهدى من لم تكن له هداية من بصيرته واستقامة تفكيره ..

فمن مرت به آيات الأرض والسماء ولم ينظر اليها ولم يعرف منها دينا خيرا من دين الوثنية والتعطيل فلن تزيده الآية الخارقة الا ضلالا على ضلال ..

وقد كان جواب النبى عليه السلام لمن يطالبونه بالمعجزات كما جاء فى القرآن الكريم من سورة الاسراء :

(وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا

(١) راجع كتاب « مطلع النور » للمؤلف فى نهاية فصل الطوالع والنبوءات .

كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا . وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا . قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً . ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه »

وفى سورة الحجر :

« ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون »

وفى سورة يونس :

ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إنى معكم من المنتظرين »

وقديما سخر من الآيات من كان يسخر من الحجة البينة كما جاء فى قصة موسى عليه السلام من سورة الزخرف :

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ، فقال إنى رسول رب العالمين ، فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون »

بل جاء فى الأناجيل من سيرة المسيح عليه السلام ان الكهنة عجلوا بسعيهم لاهلاك السيد المسيح حين علموا بآياته وأشفقوا أن تقود الناس الى الايمان برسالته ، فدعاهم الى الكيد له ما كان أحرى أن يدعوهم الى الاستماع له أو الصبر عليه ..

وعقيدة المسلم فى الغيب وجملة الغيبيات انها شىء يعلمه الله ولا يعلمه الانسان ، ولكنها لا تناقض العقل ولا تلغيه . فليست هى ضد العقل لو

عرفها وانكشف له الغطاء عنها . ولكنها فوق عقل الانسان ، لأنه محدود وعالم الغيب مطلق غير محدود ..

ومن قال انه يرفض الايمـان بغير المحدود فكأنما يقول انه يرفض الايمان بما يستحق الايمان ، اذ لا ايمان على الهدى بمعبود ناقص دون مرتبة الكمال الذى لا تحصره الحدود ..

الا ان الفارق عظيم بين ما هو ضد العقل وما هو فوقه وفوق ما يدرك بالعقول المحدودة . فما هو ضد العقل يلغيه ويعطله ويمنعه أن يفكر فيه وفى سواه ، وما هو فوق العقل يطلق له المدى الى غاية ذرعه ثم يقف حيث ينبغى له الوقوف ، وينبغى له الوقوف وهو يفكر ويتدبر . اذ كان من العقل أن يفهم ما يدركه وما ليس يدركه الا بالايمان ..

وحيثما بلغ الانسان هذا المبلغ فقد انتهى اليه بالعقل والايمان على وفاق ..

أمام الأديان

من العسير على الكثيرين من المتدينين المؤمنين بالأنبياء أن يذكروا آسبابا عقلية لتفضيلهم الدين الذى يعتقدونه على سائر الأديان التى لايعتقدونها ، وغاية ما عندهم من التعليل لهذا التفضيل أن يؤمنوا بهذه العقيدة لأنها عقيدة نبيهم ولا يؤمنون بالعقائد الأخرى لأنها عقائد أنبياء آخرين لايؤمنون بهم ولا يقولون لماذا ينكرونهم بعد ايمانهم بأمثالهم ، ولا يستطيعون أن يردوا هذا الانكار الى سبب معقول ..

وهذا العجز العقلى عن تعليل اختيارهم لبعض الأنبياء دون بعض نكاد أن يكون ضرورة لا محيص عنها يضطر اليها من يؤمن برسالة دون سائر الرسالات ، فان رسالات الأنبياء جميعا لن تخلو من فضائلها ومسوغات الايمان بها ، ولن تنحصر الفضائل ومسوغات الايمان فى رسالة واحدة ، مع تقادم الزمن وتفاوت الأمم والايمان بوجود الله وهدايته للناس منذ تهيأت عقولهم وضمائرهم لقبول الشرائع والمعتقدات ..

فالعجز العقلى عن تعليل الايمان بالدين ضرورة ملازمة لتفكير المتدين الذى لايعرف الحق فى غير دين واحد . كأنما كان الاله الهادى لعباده فى غيبة عنهم قبل أن يتنزل ذلك الدين الوحيد بين ما سلف من الأديان..

والمسلم له عصمة من عقيدته تحميه من ذلك العجز الذى يعيب العقل ويعيب العقيدة معا ، فهو دين التفكير أمام الأديان الأخرى حيث يتعسر التفكير فى أمثال هذه المواقف بين المتدينين ..

لأن المسلم يؤمن بجميع الرسالات التى سلفت قبل محمد عليه السلام ، ولا ينكر منها الا ما نسخته الشرائع النبوية نفسها لاختلاف مقتضيات الزمن ، وما ينكره العقل لما أضافه المتدينون اليه من خرافاتهم أو من أوشاب العبادات التى اختلطت ببقايا الوثنية والعقائد الجاهلية من جيل الى جيل ..

يدين المسلم برسالة نوح قبل رسالة ابراهيم وبنيه صلوات الله عليهم :

(إِنَا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عذَابٌ أَلِيمٌ . قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتقُوهُ وَأَطِيعُونِ) .

ويدين المسلم برسالات ابراهيم والنبيين من بعده كما جاء فى آيات متعددة من سور الكتاب الكريم :

(قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّون مِنْ رَبِّهِمْ لَا نفرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) .

وفى سورة النساء :

(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاط وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا) .

وفى سورة يوسف :

« وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ » .

ومع ايمان المسلم برسالات هؤلاء الأنبياء المرسلين يتفتح أمامه باب التفكير والاحتكام الى العقل باعتقاده ان الأنبياء والمرسلين يتفاضلون ويحق له التمييز بين دعواتهم بما لها من حجة وما فيها من عموم الهداية على تعدد الأمم والأزمنة ..

« وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ » . (سورة الاسراء)

***

« تِلْكَ الرُّسُل فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ » . (سورة البقرة)

ويملك المسلم حرية العقل فيما يعلم من الرسالات والدعوات التى لم تذكر بأسمائها فى كتابه ، لأن رسل الله كثيرون :

(مِنْهُمْ مَنْ قَصَصنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ) .

***

فالمسلم لايسعه أن يهمل عقله أمام الأديان والرسالات كافة حين يوفق بين واجب الايمان بها فى أصولها وقواعدها وواجب الاعراض عما اختلط بها من أوشاب الخرافة أو الضـــلالة . لأن العقل هو مرجعه الأول فى التوفيق بين هذين الواجبين ، وهو مرجعه الوحيد فى تمحيص الرسالات التى لم يقصصها القرآن الكريم عليه ، فلا غنى له عن التفكير فيها لفهم الصالح منها وغير الصالح والتمييز بين ما يجوز رفضه وما لايجوز ، عسى أن يكون من رسالات الهداية الالهية فلا يستنكره بغير بينة أو على غير هدى ..

وقد صدقت أمم ببعض الأنبياء وكذبت بنبوة محمد عليه السلام ولا حجة لها تجيب بها من يسألها الا أن تقول : اننا صدقنا بهؤلاء الأنبياء لأنهم أنبياؤنا ولم نصدق بمحمد لأنه ليس بنبى عندنا . فهم لايفرقون بين الأنبياء بقداسة السيرة ولا بعظمة الأثر ولا بشيوع الهداية وكثرة المهتدين بها ولا بفضيلة الهداية فى آدابها ومعانيها . اذ ما من فارق من هذه الفوارق يعتمدونه فى تقديرهم هوخليق أن يسوغ لهم تكذيب محمد عليه السلام مع من صدقوهم كما وصفوهم وتحدثوا عنهم فى الكتب التى يعولون عليها ..

فمما جاء عن نوح عليه السلام في الاصحاح التاسع من سفر التكوين انه « ابتدأ يكون فلاحا وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه فأبصر حام وكنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجا فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا الى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير فقال : ملعون كنعان عبد العبيد يكون لأخوته » ..

وجاء فى الاصحاح التاسع عشر من سفر التكوين عن لوط وبنتيه : « فسكن فى المغارة هو وابنتاه وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض . هلم نسقى أبانا خمرا ونضطجع معه فنحيى من أبينا نسلا . فسقتا أباهما خمرا فى تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها . وحدث فى الغد ان البكر قالت للصغيرة انى قد اضطجعت البارحة مع أبى ، نسقيه خمرا الليلة أيضا فادخلى اضطجعى معه فنحيى من أبينا نسلا . فسقتا أباهما خمرا فى تلك الليلة أيضا وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها . فحبلت ابنتا لوط من أبيهما فولدت البكر ابنا ودعت اسمه موآب وهو أبوالمؤبيين الى اليوم ، والصغيرة أيضا ولدت ابنا ودعت اسمه بن عمى وهو أبو بنى عمون الى اليوم » ..

وفى الاصحاح الخامس والعشرين من ذلك السفر عن يعقوب وأخيه : « فكبر الغلامان وكان عيسو انسانا يعرف الصيد .. انسان البرية ، ويعقوب انسانا كاملا يسكن الخيام ، فأحب اسحاق عيسو لأن فى فمه صيدا ، وأما رفقة فكانت تحب يعقوب . وطبخ يعقوب طبيخا فأتى عيسو من الحقل وهو قد أعيا ، فقال عيسو ليعقوب : أطعمنى من هذا الأحمر لأنى قد أعييت ، لذلك دعى اسمه أدوم . فقال يعقوب : بعنى اليوم بكوريتك . فقال عيسو : أنا ماض الى الموت فلماذا لى بكورية ؟ فقال يعقوب : احلف لى اليوم فحلف له . فباع بكوريته ليعقوب .

فأعطى يعقوب عيسو خبزا وطبيخ عدس ، فأكل وشرب وقام ومضى واحتقر عيسو البكورية » ..

ويجيء بعد ذلك فى الاصحاح السابع والعشرين ان اسحاق « لما شاخ وكلت عيناه عن النظـر أنه دعا عيسو ابنه الأكبر وقال له : يا ابنى .. اننى قد شخت ولست أعرف يوم وفاتى . فالآن خذ عدتك ــ جعبتك وقوسك ــ واخرج الى البرية وتصيد لى صيدا واصنع لى أطعمة كما أحب وآتنى بها لآكل ، حتى تباركك نفسى قبل أن أموت .. وكانت رفقة سامعة اذ تكلم اسحاق مع عيسو ابنه ، فذهب عيسو الى البرية كى يصطاد صيدا ليأتى به . وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة : انى قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلا : ائتنى بصيد واصنع لى أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتى . فالآن يا ابنى اسمع لقولى فيما أنا آمرك به . اذهب الى الغنم وخذ لى من هناك جديين جيدين من المعزى واصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب ، فتحضرها الى أبيك ليـأكل حتى يباركك قبل وفاته . فقال يعقوب لرفقة أمه : هو ذا عيسو أخى رجل أشـعر ، وأنا رجل أملس . ربما يجسنى أبى فأكون فى عينه كمتهاون وأجلب على نفسى لعنة لا بركة ، فقالت له أمه : لعنتك علىَّ يا ابنى . اسمع لقولى فقط واذهب خذلى ، فذهب وأخذ وأحضر لأمه ، فصنعت أمه أطعمة كما كان أبوه يحب ، وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التىكانت عندها فى البيت وألبست يعقوب ابنها الأصغر ، وألبست يديه وملاسة عنقه جلود جديى المعز ، وأعطت الأطعمـة والخبز الذى صنعت فى يد يعقوب ابنها فدخل الى أبيه وقال : يا أبى .. فقال : ها أنا ذا .. من أنت يابنى ؟.. فقال يعقوب لأبيه : أنا عيسو بكرك قد فعلت كما كلمتنى . قم اجلس وكل من صيدى لكى تباركنى نفسك ، فقال اسحاق لابنه : ما هذا الذى أسرعت لتجد يابنى .. فقال : ان الرب الهك قد يسَّر لى .. فقال اسحاق ليعقوب : تقدم لأجسك يا ابنى .. أأنت هو ابنى عيسو أم لا .. فتقدم يعقوب الى اسحاق أبيه فجسه وقال : الصوت

صوت يعقوب . ولكن اليــدين يدا عيسو ، ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيدى عيسو أخيه . فباركه وقال : هل أنت هو ابنى عيسو . فقال : أنا هو . فقال : قدم لى لآكل من صيد ابنى حتى تباركك نفسى . فقدم له فأكل ، وأحضر له خمرا فشرب ، فقال له اسحاق أبوه : تقدم وقبلنى يا ابنى ، فتقدم وقبّله ، فشم رائحة ثيابه وباركه وقال : انظر .. رائحة ابنى كرائحة حقل قد باركه الرب . فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض وكثرة حنطة وخمر ، ليستعبــد لك شعوبا وتسجد لك قبائل. كن سيدا لاخوتك ويسجد لك بنو أمك . ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين .. حــدث عنــدما فرغ اسحاق من بركة يعقوب ويعقوب قد خرج من لدن اسحاق أبيه أن عيسو أخاه أتى من صيــده فصنع هو أيضا أطعمة ودخل بها الى أبيه وقال لأبيه : ليقم أبى ويأكل من صيد ابنه حتى تباركنى نفسه . فقال له اسحاق أبوه : من أنت ؟ فقال : أنا ابنك بكرك عيسو . فارتعد اسحاق ارتعادا عظيما جدا وقال : فمن هو الذى اصطاد صيــدا وأتى به الىّ فأكلت من الأكل قبل أن تجىء وباركته ؟ نعم ويكون مباركا . فعندما سمع عيسو كلام أبيــه صرخ صرخة عظيمة ومرّة جدا وقال لأبيه : باركنى أنا أيضا يا أبى . فقال : قد جاء أخوك بمكر وأخــذ بركتك . فقال : ألا ان اسمه دعى يعقوب . فقد تعقبنى الآن مرتين . أخذ بكورتى وهو الآن قد أخــذ بركتى . ثم قال : أما أبقيت لى بركة ؟ فأجاب اسحاق وقال لعيسو : انى قد جعلته سيدا لك ، ودفعت له جميع اخوتك عبيــدا وعضــدته بحنطة وخمر . فماذا أصنع اليك يا ابنى ؟ فقال عيسو لأبيه : ألك بركة واحدة فقط يا أبى ؟ باركنى أنا أيضا يا أبى . ورفع عيسو صوته وبكى . فأجاب اسحاق أبوه وقال له : هو ذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك وبلا ندى السماء من فوق ، وبسيفك تعيش ولأخيك تستعبد ، ولكن يكون حينما تجمح أنك تكسر نيره من عنقك .. »

ومما يروى عن داود عليه السلام فى العهد القديم قصص كثيرة نذكر منها فى هذا الصدد قصته مع قائده أوريا وزوجته أثناء القتال وهى القصة التى جاءت فى الاصحاح الحادى عشر من كتاب صمويل الثانى حيث يقول : « وكان عند تمام العام فى وقت خروج الملوك ان داود أرسل يوآب وعبيده معه وجميع اسرائيل فأخرجوا بنى عمون وحاصروا ربة . وأما داود فأقام فى أورشليم وكان فى وقت المساء ان داود قام عن سريره ومشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم ، وكانت المرأة جميلة المنظر جدا فأرسل داود وسأل عن المرأة ، فقال واحد : أليست هذه بسبع بنت اليمام امرأة أوريا الحثى ؟ فأرسل داود رسلا وأخذها فدخلت عليه واضطجع معها وهى مطهرة من طمثها ثم رجعت الى بيتها وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود انى حبلى . فأرسل داود الى يوآب يقول : ارسل الىّ أوريا الحثى . فأرسل يوآب أوريا الى داود ، فأتى أوريا اليه . فسأل داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب ، وقال داود لأوريا : انزل الى بيتك واغسل رجليك ، فخرج أوريا من بيت الملك وخرجت وراءه حصة من عند الملك ، ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده ، ولم ينزل الى بيته ، فأخبروا داود قائلين : لم ينزل أوريا الى بيته . فقال داود لأوريا : أما جئت من السفر ؟ فلماذا لم تنزل الى بيتك ؟ فقال أوريا لداود : ان التابوت واسرائيل ويهودا ساكنون فى الخيام ، وسيدى يوآب وعبيد سيدى نازلون على وجه الصحراء ، وأنا آتى الى بيتى لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتى . وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر . فقال داود لأوريا أقم هنا اليوم أيضا ، وغدا أطلقك . فأقام أوريا فى أورشليم ذلك اليوم وغده ، ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره وخرج عند المساء ليضطجع فى مضجعه مع عبيد سيده ، والى بيته لم ينزل ، وفى الصباح كتب داود مكتوبا الى يوآب وأرسله بيد أوريا ، وكتب فى المكتوب يقول : اجعلوا أوريا فى وجه الحرب الشديدة وارجعوا

من ورائه فيضرب ويموت . وكان فى محاصرة يوآب المدينـة انه جعل أوريا فى الموضع الذى علم ان رجال البأس فيه فخرج رجال المدينـة وحاربوا يوآب فسقط بعض الشعب من عبيد داود ومات أوريا الحثى فأرسل يوآب وأخبر داود بجميع أمور الحرب.. فلما سمعت امرأة أوريا انه قد مات أوريا رجلها ندبت بعلها ، ولما قضت المناحة أرسـل داود وضمها الى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابنا ، وأما الأمر الذى فعله داود فقبح فى عين الرب »

***

ومن أمثال هذه الروايات عن الأنبياء المذكورين فى التوراة قصـة هوشع الذى قيل فى كتابه ان « أول ماكلم الرب هوشع ، قال الرب لهوشع : اذهب خذ لنفسك امرأة زنا وأولاد زنا لأن الأرض قد زنت زنى تاركة الرب . فذهب وأخذ جومر بنت دبلايم فحبلت وولدت له ابنا فقال له الرب : ادع اسمه يزرعيل لأننى بعد قليل أعاقب بيت يهوا على دم يزرعيل وأبيد مملكة بيت اسرائيل ويكون فى ذلك اليوم أنى أكسر قوس اسرائيل فى وادى يزرعيل . ثم حبلت أيضا وولدت بنتا فقال له : ادع اسمها لورحامة لأنى لا أعود أرحم بيت اسرائيل أيضا ، بل أنزعهم نزعا .. »

ثم يتبع هذا الاصحاح اصحاح تال يقول فيه النبى : « وقال الرب لى اذهب أيضا أحبب امرأة حبيبة صاحب وزانيـة كمحبة الرب لبنى اسرائيـل وهم ملتفتون الى آلهة أخرى ومحبـون لأقراص الزبيب . فاشتريتها لنفسى بخمسة عشر شاقل فضة وبحومر ولثك شعير ، وقلت لها : تقعدين أياما كثيرة ولا تزنى ولا تكونى لرجل ، وأنا كذلك لك . لأن بنى اسرائيل سيقعدون أياما كثيرة بلا بلد وبلا رئيس وبلا زيجة وبلا تمثال وبلا أفود وترافيم .. »

هذه الأخبار وما اليها نورد منها ما أوردناه ولا نناقشه أو نتعرض لنفيه واثباته لأننا لم نكتب هذه الفصول لنخوض فى الجدل الدينى الذى

لا صلة له بما نبينه من فريضة التفكير فى الاسلام ، ولكننا نورد تلك الأخبار لنستخلص منها منهج الانسان أمام الأديان كما يتعلمه من الاسلام ومنهجه أمام الاسلام كما يتعلمه من غيره ..

فالذين يقبلون هذه النبوات ويكذبون برسالة عيسى ومحمد عليهما السلام ، أو الذين يقبلونها جميعا ويكذبون رسالة نبى الاسلام وحدها لا تقام عندهم حجة النبوة بقداسة السير ولا بعظمة الأثر ولا بفضيلة الهداية فى آدابها ومعانيها ..

أما الاسلام فانه يعلم المسلم أن يقبل جميع الرسالات ولايرفض منها شيئا لغير سبب يفقهه ويقيم الحجة عليه مما ينبغى لصفة النبوة أو ينبغى لصلاح الرسالة ..

واذا فضل الاسلام على سائر الأديان فهو لا يفضله لأنه دينه وكفى ، وانما يفضله لأنه يدعوه فى كل عقيدة دينية الى ما هو خير عنده مما يدعى اليه فى الأديان عامة ..

فالاله الذى يدين به المسلم رب واحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، وهو رب العالمين فتح لهم باب الخلاص بهداية الأنبياء منذ وجدوا ، وليس ربا لقبيلة أو عشيرة يكتب لها الخلاص وحدها وتخص بالحظوة دون من عداها من عامة بنى الانسان ..

والنبوة التى يدين بها المسلم هى نبوة الهداية التى ترشد العقل بالبينة والموعظة الحسنة ولا تفحمه بالمعجزة المسكتة أو بالحماية من المجهول ..

والانسان فى عقيدة المسلم مخلوق مكلف ينجو بعمله لا بالوساطة التى لا فضل له فيها ، ويحمل وزره ولا يحمل الأوزار من ميراث الآباء الأولين ، وكل مفاضلة بين عقيدة وعقيدة عند المسلم فمردها الى سبب ، وسببها قائم على فضيلة يفهمها العقل ويطمئن اليها الضمير . وقد يختلف فيها الغيب والشهادة ، ولكنه اختلاف لا يصدم العقل فيما تقرر لديه ، وانما يفوقه بما يتممه اذا انتهى الى غاية مداه ..

الاجتهاد فى الدين

مصادر الشرائع والأحكام فى الدين الاسلامى ثلاثة : الكتاب والسنة والاجماع ..

ويقوم الاجماع على اجتهاد أولى الأمر وأهل الذكر بما اشتمل عليه من قياس واستحسان أو مصالح مرسلة ، أى مصالح لم تتقيد بحكم خاص ينطبق عليها فى جميع الأحوال وجميع الأزمنة ، ولكنها من العوارض المتغيرة التى ينظر فيها المسلمون الى مصالحهم بحسب أحوالها وأزمنتها ..

والفهم واجب على المسلم فى الأخذ من جميع هذه المصادر والعمل بها ، فلا تعارض بين النص والاجتهاد فى وجوب الفهم فى كل منها ، لأن المسلم — بعدما تلقاه من الأوامر الالهية التى توجب عليه التفكير والتدبير والاحتكام الى العقل والبصيرة — لايستطيع أن يعتقد انه مطالب باتباع النص بغير فهم ولا تفرقة بين مواضع الاتباع وأسبابه ، ومن قال ان العمل بالنص يعنى العمل بغير فهم فليس هو من الاسلام فى شىء

والفرائض كلها فى الاسلام تتساوى فى شرط واحد : وهو الاستطاعة ، ومنها التفكير. فلا فرق بين الصلاة والحج والزكاة والتفكير فى شرط الاستطاعة ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها :

« فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » .

والتفكير فى أمور الدين أصل من الأصول المقررة . أما التقليد فهو حالة من حالات الضرورة التى تعفى من الاجتهاد بالفهم من يعجز عنه ولا يستطيعه . وقد يكون المستطيعون للاجتهاد أقل عددا من المستطيعين للصلاة ، وكذلك المستطيعون للزكاة والحج هم أقل عددا ممن يؤدون صلاتهم أو يقدرون عليها ، ولكن الفرق فى الاستطاعة لا يجعل العجز

عن الفريضة واجبا محتوما يلتزمه العاجز ولا يعمل على الخلاص منه كلما استطاع . اذ الفرق ظاهر بين الواجب الذى لايستطاع والحرام المنهى عنه . فلا ايجاب للتقليد ولا تحريم للاجتهاد بالفكر ، وشر النـاس فى الاسلام من يحرم على خلق الله أن يفكروا ويتدبروا بعد أن أمرهم الله بالتفكير والتدبر وأنبأهم بعاقبة الذين لا يفكرون ولا يتدبرون ، ومثله شرا من يحرم الاجتهاد على الناس جميعا لأنه قضى على خلق الله الى آخر الزمان بالحرمان من نعمة العقل والعلم والصلاح ..

ومن أباح لنفسه أن يحرم على الناس نعمـة العقل والعلم الى آخر الزمان فقد اجتهـد برأيه اجتهـادا أبعد فى الدعوى من كل ما يدعيه المجتهدون على حق أو على باطـل . فانه يلغى أوامر الله لعبـاده حيث يتحرى المجتهدون أن يبتغوا الوسيلة اليها . فهو ينهى الناس برأيه عما أمرهم به الله واجتهدوا قادرين أو عاجزين أن يطيعوه ..

وليس التفكير فى الاسـلام عوضا من النص أو ما يشبه النص فى الأحكام ، بل هو فريضة منصوص عليها مطلوبة لذاتها ولما يتوقف عليها من فهم الفرائض الأخرى ، وكلها محظور على المسلم أن يهمله وهو قادر على النهوض بتكاليفه غير مضطر الى تركه ، فان تركه لغير ضرورة فهو مقصر محاسب على التقصير ..

وقد وقع الاجتهاد فى الاسلام نصا وعرفا وتقليدا ان صح هذا التعبير. ونعنى بالتقليد -هنا حسن القدوة بالأولين والتابعين من السلف الصالح ، وأول الأولين نبى الاسلام عليه السلام ثم الخلفاء الراشدون ومن تبعهم فى العصور التى اشتدت فيها حاجة المسلمين الى الاجتهاد . فان البعد عن القدوة المشاهدة من الخلف الصالح أحرى أن يلجىء ولاة الأمور وأهل الذكر بين المسـلمين الى التفكير فيما يصلح لأزمنتهم ولم يكن معهودا فى أزمنة الأولين ..

فمن اجتهاد النبى صلوات الله عليه فيما رواه أبو داود عن عبد الله ابن فضالة عن أبيه حيث قال : « علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم

فكان فيما علمنى : وحافظ على الصلوات الخمس . فقلت : ان هـذه ساعات لى فيها أشغال فمرنى بأمر جامع اذا أنا فعلته أجزأ عنى . فقال : « حافظ على العصرين » وما كانت من لغتنا . فقلت : وما العصران ؟.. فقال : صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة بعد غروبها ..

ومن الاجتهاد النبوى فيما رواه الامام أحمد عن عثمان بن أبى العاص أن وفد ثقيف قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزلهم المسجد ليكون أرق لقلوبهم ، فاشترطوا ألا يحشروا ولا يعشروا ولا يجبوا ـ أى لايخرجوا للجهاد ولا تؤخذ منهم الزكاة ولا يحبون للصلاة ـ ولا يستعمل عليهم غيرهم . فقال صلى الله عليه وسلم : لكم ألا تحشروا ولا تعشروا ولا يستعمل عليكم غيركم . ولا خير فى دين لا ركوع فيه ..

***

ويروى أبو داود عن جابر انه سمع رسول الله يقول بعد ذلك : « سيصدقون ويجاهدون » ..

ومما رواه الامام أحمد فى مسنده عن نصر بن عاصم عن رجل منهم أنه أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأسلم على أنه لايصلى الا صلاتين ، فقبل ذلك منه ..

وجاء فى البخارى أن أم عطية قالت : بايعنا صلى الله عليه وسلم فقرأ علينا « أن لايشركن بالله شيئا » ونهانا عن النياحة ، فقبضت امرأة يدها فقالت : « أسعدتنى فلانة فأريد أن أجزيها » وجاء فى رواية النسائى أنه عليه السلام قال لها : فاذهبى فأسعديها ، ورجعت فبايعها ..

وأشباه هـذا من وقائع الاجتهاد النبوى غير قليل ، وانه لاجتهاد رسول الدعوة الاسلامية : أحق الناس بتيسير هذه الدعوة ، وانه كذلك لأحقهم بالتشدد فيها حيث يترخص المترخصون ..

أما الخلفاء الراشدون فقد اجتهدوا منذ عهد الخليفة الأول أبى بكر الصديق فى المصالح المرسلة التى لم يرد فيها نص ولم تسبق لها سابقة ،

وأجمل الامام أحمد بن ادريس القرافى ما اجتهدوا فيه من قبيل تلك المصالح فقال فى كتابه « شرح تنقيح الفصول » : « ومما يؤكد العمل بالمصالح المرسلة ان الصحابة رضوان الله عليهم عملوا أمورا لمطلق المصلحة لا لتقدم شاهد بالاعتبار ، نحو كتابة المصحف ولم يتقدم فيه أمر ولا نظير ، وولاية العهد من أبى بكر لعمر رضى الله عنهما ولم يتقدم بها أمر ولا نظير ، وكذلك ترك الخلافة شورى وتدوين الدواوين وعمل السكة للمسلمين واتخاذ السجن . فعل ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهدم الأوقاف التى بازاء مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم والتوسعة بها فى المسجد عند ضيقه . فعله عثمان رضى الله عنه ، وتجديد الأذان فى الجمعة بالسوق . فعله عثمان رضى الله عنه ثم نقله هشام الى المسجد وذلك كثير جدا لمطلق المصلحة » ..

واجتهد أبو بكر وعمر معا فيما ورد فيه النص لزوال العلة الموجبة كما فعل فى سهم الزكاة للمؤلفة قلوبهم ، وكان لهم سهم يأخذونه من رسول الله صلوات الله عليه تألفا لقلوبهم أيام ضعف الاسلام وضعف عقيدتهم ، ومنهم عباس بن مرداس والأقرع بن حابس وعيينة بن حصن وأبو سفيان بن حرب وابنه معاوية ، فلما ولى الصديق جاءوه يسألونه سهمهم هذا فكتب لهم بذلك الى عمر فمزق الكتاب وقال لهم : لاحاجة لنا بكم فقد أعز الله الاسلام وأغنى عنكم ، فان أسلمتم والا فالسيف بيننا وبينكم ، فلما رجعوا الى الصديق يستثيرونه ويسألونه : والله لا ندرى أنت الخليفة أو عمر ؟ .. قال : بل هو ان شاء ، وأمضى ما فعله عمر كما جاء تفصيله فى كتاب الجوهرة على مختصر القدورى ..

قلنا فى كتاب حقائق الاسلام : « ومن سوء الفهم أن يقال انالفاروق خالف النص فى هذه القضية ، وانما يقال انه اجتهد فى فهم النص كما ينبغى وانه بحث عن المؤلفة قلوبهم فلم يجدهم ، لأن تأليف القلوب انما يكون مع مصلحة للاسلام والمسلمين . فان لم يكن تأليف لم يكن هناك مؤلفة يستحقون العطاء ، ولو أن عيينة والأقرع وأصحابهما سئلوا

يومئذ : أهم من المؤلفة قلوبهم يستحقون العطاء لأنهم ضعاف الايمان لما قبلوا أن يثبتوا فى ديوان العطاء » ..

وأبين من ذلك فى باب الاجتهاد مع وجود النص ما رواه الامام ابن قيم الجوزية مفصلا فى كتابه عن أعلام الموقعين حيث قال عن اسقاط حد السرقة فى عام المجاعة : « ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أسقط القطع عن السارق فى عام المجاعة » . وبعد أن ذكر الاسناد المتتابعة قال : حدثه عن عمر قال : لا تقطع اليد فى عذق ولا عام سنة . قال السعدى : سألت أحمد بن حنبل عن هذا الحديث فقال : العذق النخلة وعام سنة المجاعة ، فقلت لأحمد : تقول به ؟.. فقال : أى لعمرى . قلت : ان سرق فى مجاعة لا تقطعه ؟.. فقال لا . اذا حملته الحاجة على ذلك والناس فى مجاعة وشدة .. قال السعدى : وهذا على نحو قضية عمر فى غلمان حاطب .. ان غلمة لحاطب بن أبى بلتعة سرقوا ناقة لرجل من مزينة فأتى بهم عمر فأقروا فأرسل الى عبد الرحمن بن حاطب فجاء فقال له : ان غلمان حاطب سرقوا ناقة لرجل من مزينة وأقروا على أنفسهم فقال عمر: يا كثير بن الصلت .. اذهب فاقطع أيديهم . فلما ولى بهم ردهم عمر وقال : أما والله لولا انى أعلم انكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى ان أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه حل له لقطعت أيديهم . وأيم الله اذ لم أفعل لأغرمنك غرامة توجعك . ثم قال : يامزنى : بكم أريدت ناقتك ؟ قال : بأربعمائة . قال عمر : اذهب فاعط ثمانمائة . وذهب أحمد الى موافقة عمر فى الفصلين جميعا » ..

نقول أيضا : انه لمن الخطأ أن يقال ان الفاروق ترك النص أخذا بالرأى ، فانه فى الواقع عمل بالنص فلم يقم الحد فى غير اثم ، ولا اثم مع الاضطرار . ولو انه فعل غير ما فعل لكان آثما حاشاه ، لأن اقامة الحد فى غير موضعه منكر كاسقاطه فى موضعه . وربما كان اطلاق الآثم أهون شرا من عقاب البرىء . ومن كان اماما فلم يدرأ الحدود بالشبهات ولم يحسب حساب الضرورة التى يبطل معها الاثم فهو المجترىء على

حدود الله ، وحكمه حكم من ترك الحدود بغير برهان ..

ومن الفهم المعكوس أن يقال ان الاجتهاد لازم فى عصر الدعوة النبوية والنصوص من الكتاب تتوارد والسنة من أحاديث النبى حاضرة وصاحب الدعوة أمام الناس يسألونه ويجيبهم ، ثم ينقضى ذلك العهد فيحرم الاجتهاد وهو الموئل الوحيد بين أيديهم لفهم النصوص وتصحيح العمل بالفرائض والأحكام . فهذا من الفهم المعكوس ولا مراء ، لأنه يقضى بالاستغناء عن الاجتهاد عند الحاجة اليه ، والفهم الصحيح فى هذه المسألة الجليلة ان ما صنعه النبى عليه السلام وتابعه فيه الراشدون من خلفائه وأصحابه وجب على المسلمين أن يصنعوا مثله ولهم قدوة من أولى الناس أن يقتدوا بسيرته وعمله ..

***

وشبيه بهذا فى الفهم المعكوس أن يقال ان الاجتهاد يصح حين تصح الذمم وتظهر الضمائر وتسلم العقائد ويكثر الصالحون ، ولكنه يبطل ولا يصح اذا عم الفساد وزاغت الضمائر وضعف اليقين بالأعمال والنيات ، فالواقع أن عهد الفساد عهد تكثر فيه الشبهات التى ينبغى للحاكم أن يدرأها عند اقامة الحدود وتكثر فيه الضرورات التى يجب عليه أن يقدرها بأقدارها عند توقيع العقاب ، وولى الأمر هو المسئول المحاسب على اقامة الحد فى موضعه ودرء الشبهات فى مواضعها ، وهو المسئول المحاسب على تقدير الضرورات فيما يجريه من عقاب أو يسقطه من جزاء ، وعليه أمانة هذا الواجب الذى يتساوى فيه وضع الجزاء فى موضع الاعفاء ووضع العفو فى موضع الجزاء . فان لم يكن بالحاكم ثقة أن يجرى الأمور فى مجراها ولم يكن بالناس ثقة أن تصح فيهم الذمم وتسلم الضمائر فمن لغو القول أن يطول الجدل فيمن يقيم الأحكام وفيما يقام ..

ويتبين من تاريخ العالم الاسلامى فى جملته انه على ما اعتراه من أدوار التأخير والجمود لم يستمع طويلا لآراء القائلين بمنع الاجتهاد فى أية

صورة من صوره ، فاذا غلب التقليد فى بلد من بلاده لم يخل سائر البلدان من أئمة يقولون بالاجتهاد ويعملون به فى كل باب من أبوابه ، وهى كثيرة تدل كثرتها على كثرة البحث فيها وكثرة العاملين بها ..

فمن أبواب الاجتهاد القياس ، وهو أن يرى المجتهد رأيا فيما لم يرد فيه نص من الكتاب والحديث قياسا على ما ورد من النصوص للمشابهة فى العلة والمقصد ..

ومن أبوابه الاستحسان ، وهو المفاضلة بين حكمين مستندين الى النصوص ترجيحا لأحد الحكمين على الآخر لأن الراجح منهما أوفى بالقصد وأقرب الى السبب المشروط فى اجرائه ..

ومنها المصالح المرسلة ، وهى المصالح التى لم تتقيد بنص ولم يسبق لها نظير ، ولكنها عمل تتحقق به مصلحة الأمة فى حالة من الحالات فيتصرف فيها الامام المسئول بما يوافق تلك المصلحة ويمنع الضرر من فواتها ..

ومهما يكن من قول بمنع الاجتهاد فمن الحق أن نعلم أن عمل السياسة فيه كان أقوى وأفعل من عمل الدين وبواعث العقيدة أو الشريعة ، وهذه مسألة لها خطرها فى هذا البحث عن فريضة التفكير فى الاسلام ، فهى حقيقة أن نرجع بها الى أصولها وأن نذهب بها الى غاياتها التى تتكشف من حوادثها وأزمنتها ..

فلم يتردد فى العالم الاسلامى قول القائلين بمنع الاجتهاد كما تردد فى عصر الدعوة الفاطمية التى تعرف أحيانا باسم الدعوة الباطنية أو الدعوة الاسماعيلية ، وينسب اليها الايمان بالامام المستور والمبايعة له جهرا وسرا اذا اقتضت « التقية » اخفاء أمره الى حين ..

وخلاصة المذاهب الامامية ان هذا العالم لا يخلو من امام يقوم بالهداية ويعلم من أسرار الدين ما لايعلمه أحد من خاصة العلماء أو من عامة المقلدين ، لأن هؤلاء جميعا انما يعلمون ما ظهر من نصوص الكتاب ولا علم لهم بما بطن منه ، وهو عندهم معنى الحديث الذى يقول : « ان

القرآن نزل على سبعة أحرف » فلا يهتدى اليها على حقائقها غير الامام الذى اختصه الله بأمانة الالهام ..

وقد نشأ مذهب « الظاهرية » ليقاوم هذه الباطنية وينكر الحاجة الى امام مستتر يعلم الناس ما ليس فى وسعهم أن يتعلموه من ظاهر الآيات والأحاديث ..

ونشأ مذهب الظاهرية فى المشرق فقام به فى بغداد داود بن سليمان الظاهرى (٢٠١ ــ ٢٧٠ هـ) ولكنه لم يبلغ من القوة والشيوع مبلغه فى المغرب على يد الامام على بن أحمد بن سعيد المشهور باسم ابن حزم الظاهرى (٣٨٤ ــ ٤٥٦ هـ) اذ كانت الدعوة الفاطمية ــ أو الامامية الاسماعيلية ــ على أقواها وأشيعها فى بلاد المغرب من افريقيا الشمالية وكان ابن حزم أمويا شديد التعصب للدولة الأموية شديد الانكار على من يقاومونها من العلويين أو الفاطميين ، حتى قال بعضهم عنه انه « ناصب » أى ممن يعادون شيعة آل البيت ويناصبونهم العداء ..

قال ابن حزم فى كتاب الفصل : « واعلموا ان دين الله ظاهر لا باطن فيه وجهر لا سر تحته ، كله برهان لا مشاحة فيه ، واتهموا كل من يدعو الى أن يتبع بلا برهان وكل من ادعى للديانة سرا وباطنا ، فهى دعاوى ومخارق . واعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكتم من الشريعة كلمة فما فوقها ولا أطلع أخص الناس به من زوجة أو ابنة أو عم أو ابن عم أو صاحب على شىء من الشريعة كتمه عن الأحمر أو الأسود ورعاة الغنم ، ولا كان عنده عليه السلام سر ولا رمز ولا باطن ، غير ما دعا الناس كلهم اليه ، ولو كتمهم شيئا لما بلغ كما أمر ، ومن قال هذا فهو كافر . فاياكم وكل قول لم يبن سبيله ولا وضح دليله ، ولا تعوجوا عما مضى عليه نبيكم صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم » ..

وكان من المسائل التى لهج ابن حزم بتقريرها مسألة الوراثة فى الامامة فقال فى كتاب الفصل أيضا : « لا خلاف بين أحد من المسلمين فى أنه لا يجوز التوارث فيها ولا فى أنها لا تجوز لمن لم يبلغ حاشا الروافض .

فانهم أجازوا كلا الأمرين ، ولا خلاف بين أحد فى أنها لا تجوز لامرأة ».

ولكن ابن حزم لاينكر ولاية العهد ولو كانت فى مرض الموت « كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبى بكر ، وكما فعل أبو بكر بعمر ، وكما فعل سليمان بن عبد الملك بعمر بن عبد العزيز . قال : وهذا الوجه هو الذى نختاره ونكره غيره ، لما فيه من اتصال الامام وانتظام أمر الاسلام وأهله ، ورفع ما يتخوف من الاختلاف والشغب مما يتوقع فى غيره من بقاء الأمة فوضى » ..

وقد اختار ابن حزم لتعزيز هذا الرأى ــ أى جواز المبايعة بولاية العهد حتى فى مرض الموت ــ خليفة أمويا لا يختلف المسلمون من أهل السنة أو من الشيعة فى صلاحه وتوقيره ، وهو عمر بن عبد العزيز الذى قال فيه الشريف الرضى :

يا ابن عبد العزيز لو بكت العـ ـين فتى من أمية لبكيتك
غير انى أقول انك قد طبـ ـت ، وان لم يطب ولم يزك بيتك

ومما يدل على أن الظاهرية قامت على أساسها أصلا لادحاض الدعوة الباطنية أن ابن حزم لايبطل الاجتهاد بل يوجبه على جميع المسلمين وانما ينكر أن يختص بالاجتهاد امام واحد يفتى بعلم ينفرد به ولا ينكشف للمسلمين عامة من نصوص الآيات والأحاديث ، فهو يقول فى الجزء الأول من المحلى : « لا يحل لأحد أن يقلد أحدا لا حيا ولا ميتا ، وكل أحد له الاجتهاد حسب طاقته ، فمن سأل عن دينه فانما يريد معرفة ما ألزمه الله عز وجل فى هذا الدين . ففرض عليه ان كان أجهل أهل البرية أن يسأل عن أعلم أهل موضعه » الى أن يقول : ومن ادعى وجوب تقليد العامى للمفتى فقد ادعى الباطل وقال قولا لم يأت به قط قرآن ولا سنة ولا اجماع ولا قياس ، وما كان هكذا فهو باطل لأنه قول بلا دليل » ..

وعلى هذا يكون ابن حزم متوسعا فى تحكيم العقل غير متحرج منه الا أن يختص به أحد دون جمهرة المسلمين ، وهو لا يبطل التصرف فى

فهم ألفاظ النص كل الابطال ، بل يجيز العدول عن ظاهر اللفظ اذا اتضح بالدليل العقلى الذى لا يرد انه مستحيل لايجوز أن يكون هو المقصود بالأمر الالهى . وفى ذلك يقول من الجزء الثانى من كتاب الفصل : « ان كلام الله تعالى واجب أن يحمل على ظاهره ولا يحال عن ظاهره البتة . الا أن يأتى نص أو اجماع أو ضرورة حس على ان شيئا منه ليس على ظاهره ، وانه قد نقل عن ظاهره الى معنى آخر . فالانقياد واجب علينا لما أوجبه ذلك النص أو الاجماع أو الضرورة لأن كلام الله تعالى وأخباره لا تختلف ، والاجماع لا يأتى الا بحق ، والله تعالى لا يقول الا الحق وكل ما أبطله برهان ضرورى فليس بحق .. »

***

ورأى ابن حزم هذا فيما يجيز العدول عن ظاهر اللفظ الى معنى غير الظاهر قريب جدا من مذهب القائلين بالرأى ، ولكنه يخالفهم فى القياس والاستحسان والمصالح المرسلة ، وهو ــ مع هذه المخالفة ــ لايحجر على الاجتهاد ولا يمنع المسلمين عامة أن يرجعوا الى عقولهم فى أمور الدين ، بل يفرض الرجوع الى العقل على العالم والجاهل الذى يستطيع أن يجد من يسأله ويتعلم منه ، وغاية ما يخشى من نتائج المذهب الظاهرى لو دام وتقرر فى بلاد المسلمين انه يصد فريقا من العلماء القادرين على الاجتهاد النافع عن الاضطلاع بأمانة القيادة الفكرية ، وان كان لايصدهم عن تعليم الناس ما علموه والمشورة على ولاة الأمر بما يحسن أو لايحسن فى مواطن التشريع ، وعليهم بعض العنت فى تدبير المصالح المرسلة بما تقتضيه من موافقة للضرورات ..

ولعل هذا المذهب الظاهرى أهم المذاهب التى ابتعثتها دواعى السياسة فى المغرب ، وقد شاع حينا ثم ضعف وأخذ فى الزوال شيئا فشيئا بزوال الحافز الحثيث الى المضى فى نشره والتنبيه اليه ..

أما فى المشرق فقد أغنى عن الدعوة الحثيثة الى نشر المذهب الظاهرى أن الخلفاء والأمراء كانوا يبنون المدارس ويجرون فيها الجراية على طائفة

من علماء المذاهب الأربعة لايشترك فيها غيرهم من أصحاب الاجتهـاد ، وفيهم من كان فى طبقة الأئمة الأربعة فى العلم والصلاح ، وكان له أتباع يأتمون به ربما قاربوا فى عددهم أتباع الأئمة أبى حنيفة والشافعى ومالك وأحمد ، ولكن مذاهبهم لا تدرس فى المعاهد التى تفرض لها الجراية من خزائن الدولة وهبات الخلفاء والأمراء ..

***

وانتهى الأمر فى أوائل القرن السابع بأمر الخليفة المستعصم علماء الفقه فى المدرسة المستنصرية أن يقصروا دروسهم على أقوال الأئمة من قبلهم ولا يدرسوا كتابا من كتبهم لتلاميـذهم ، فدعاهم الوزير وأبلغهم أمر الخليفة فقال جمال الدين الجوزى أستاذ المذهب الحنبلى : انه على هـذا الرأى ، وقال الشرمساحى أسـتاذ المذهب المالكى : انه يرتب النقط فى مسائل الخلاف وليس لأصحابه تعليقة أى شروح مدونة ، وقال شـهاب الدين الزنجانى أستاذ المذهب الشافعى وعبد الرحمن اللمغانى أسـتاذ المذهب الحنفى : ان المشايخ كانوا رجالا ونحن رجال ، فلما رفع الوزير اجابتهم الى الخليفة دعاهم اليه وأعاد اليهم أمره فأطاعوه ، وجرى مثـل ذلك فى المدارس الكبرى فتضاءل شأن القائلين بآرائهم فى مسائل الفقه والأصول ، وكثر الاقبـال على دروس المذاهب التى يتعلمها الطلاب فى معاهد الدولة ، ومنهم يختار القضاة والمعلمون وخطباء المساجد وعمـال الدواوين ..

جاء فى شرح جمع الجوامع ان الشيخ أبازرعة سأل أستاذه البلقينى عن الشيخ تقى الدين السبكى كيف يقلد وقد استكمل آلة الاجتهاد ؟

قال الشيخ : فسكت عنى . ثم قلت : ما عندى ان الامتناع عن ذلك الا للوظائف التى تجرى على فقهاء المذاهب الأربعة ، وان من خرج على ذلك واجتهد لم ينله شىء وحرم ولاية القضاء وامتنع الناس عن استفتائه ونسب الى البدعة . فتبسم ووافقنى على ذلك ..

كان هذا فى القرن السابع للهجرة وما بعده بقليل ، ثم رانت على العالم

الاسلامى غاشية الجمود والضعف فانقطع الناس عن العلم اجتهادا وتقليدا؛
وتواكلوا فى كل شىء من جلائل الأمور وصغائرها وقل الاعتماد على
النفس وقلَّ من يثق بنفسه أو يستحق الثقة من غيره ، وندر من يتقدم
لادعاء الاجتهاد ومن يصغى اليه لو ادعاه ، وجرت أحوال الحياة جميعا
على الاتباع والانقياد ، ولم يبال الناس ماخالف الولاة وما وافقوا من
سنن الدين أو سنن العرف المأثور . وطالت هذه الفترة نحو أربعة قرون ،
تتابعت فيها الضربات والقوارع على الأمم الاسلامية حتى تيقظت فيها
بعد السبات الطويل بقايا الحياة التى كمنت فى سرائرها من وحى عقيدتها
فنبغ فى كل أمة منها رهط من القادة الغيورين يجاهدون ويجتهدون
ويعودون بها كما بدأ الاسلام الى حظيرة الدين ، وتعلم المسلمون منعهود
الخمول والنكسة دروسا كالتى تعلموها من عهود العزة والتقدم : فحواها
من طرفيها المتناقضين ان العجز عن الاجتهاد والعجز عن الحياة مقترنان .
وأن المسلمين يحتفظون بمكانهم بين أمم العالم ما احتفظوا بفريضة التفكير

التصوف

قبل تمييز الخاصة التى انفرد بها التصوف الاسلامى نسأل عن الخاصة المميزة للتصوف عامة ما هى ؟

فالتصوف فى أمم الغرب المسيحية يشتق من الخفاء أو السر، ويطلقون عليه اسم « مستسزم » Mysticism أى « السرية » أو المعانى الخفية . فخاصته المميزة له عندهم هى البحث فى البواطن والتعمق فى الأسرار المغيبة وراء الظواهر ..

واسم التصوف العربى مختلف فى اشتقاقه وسبب اطلاقه ، فالقول الشائع أنه مأخوذ من الصوف وأن المتصوف هو الذى يتخشن ويتزيى بزى النساك المتعبدين ، وخاصته المميزة له على هذا المعنى أنه زهد وتقشف وابتعاد عن الترف والمتعة ..

ويقول بعضهم : ان الصوفى منسوب الى صوفة ، كما جاء فى أساس البلاغة للزمخشرى وغيره : « وكان آل صوفة يجيزون الحاج من عرفات أى يفيضون بهم ، ويقال لهم : آل صوفان وآل صفوان، وكانوا يخدمون الكعبة ويتنسكون ، ولعل الصوفية نسبوا اليهم تشبيها بهم فى النسك والتعبد » ومما رواه ابن الجوزى فى كتاب تلبيس ابليس : « انما سمى الغوث بن مر صوفة لأنه ماكان يعيش لأمه ولد فنذرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفة ولتجعلنه ربيط الكعبة ، ففعلت فقيل له صوفة ولولده من بعده » ..

واذا صح هذا التخريج فالصوفى اسم منقول على سبيل التشبيه لايدل على الخاصة المميزة للصوفية بعد الاسلام الا من قبيل المماثلة فى الخدمة الدينية العامة ..

وآخرون من المحدثين يرجحون ان الكلمة مستعارة من اليونانية بمعنى الحكمة الالهية وهى مركبة فى تلك اللغة من كلمتين هما « ثيو » أى الاله و « سوفى » أى الحكمة . ومعنى التصوف اذن مقابل لمعنى الحكمة العقلية وهى الفلسفة ، لأن الصوفى يطلب الحكمة من طريق الدين ، وربما كانت المقاربة فى اللفظ أقوى سند يعتمد عليه القائلون الى استعارته من اللغة اليونانية ..

ويرجح الكثيرون أن التصوف منسوب الى أهل الصفة الذين كانوا على عهد الرسول ، ويحب الصوفيون أنفسهم أن يشتقوا الكلمة من الصفاء كما جاء فى كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف « انما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها ونقاء آثارها ، وقال بشر بن الحارث « الصوفى من صفا قلبه لله » ونظم أبو الفتح البستى هذا المعنى شعرا فقال :

ولست أنحل هذا الاسم غير فتى صاف فصوفى حتى سمى الصوفى

والذين آثروا هذا التخريج لكلمة الصوفية لايقصدون تحقيق التاريخ ولا اللغة ولكنهم يستخدمون الجناس لاستخراج المعنى البعيد من اللفظ القريب كعادة الصوفية فى تحميل الكلمات ما يريدونه من الاشارات ، فهو من ثم أقرب الأسماء الى اختيارهم وايثارهم ، ولعله أدلها على الخاصة المميزة لهم بين الخواص المتعددة التى عسى أن تصدق عليهم ..

فالتعمق فى طلب الأسرار صفة مشتركة بين الصوفية وفلاسفة التفكير الذين يغوصون على الحقائق البعيدة وعلماء النفس الذين ينقبون عن ودائع الوعى الباطن وغرائب السريرة الانسانية ..

ولبس الصوف ان دل على التخشن والزهد فى الدنيا لم يكن خاصة مميزة للصوفية ، لأن أناسا من أقطاب الصوفية أخذوا نصيبهم من الدنيا وافيا وفهموا أن الزاهد من لا تملكه الدنيا وان ملكها ، أو كما قال مسروق : « الزاهد من لايملكه مع الله سبب » ولا ضير عليه أن يملك الأسباب ..

والاشتغال بالحكمة الدينية عمل يعمله حكماء الصوفية وهم طائفة من أهل التصوف مع طوائفهم الكثيرة التى تسلك مسلكهم ولا تحسب من حكمائهم ، بل ربما وجد من علمائهم من يكتب فى المعاملات ، وقد ذكرهم الامام أبو بكر محمد بن اسحاق الكلاباذى فقال فى كتاب التعرف بعد تسمية بعضهم : « وهؤلاء هم الأعلام المذكورون المشهورون المشهود لهم بالفضل الذين جمعوا علوم المواريث الى علوم الاكتساب . سمعوا الحديث وجمعوا الفقه والكلام واللغة وعلم القرآن ، تشهد بذلك كتبهم ومصنفاتهم ، ولم نذكر المتأخرين وأهل العصر وان لم يكونوا بدون من ذكرنا علما لأن الشهود يغنى عن الخبر عنهم » ..

فالصوفية قد يخلعون الصوف وقد يعيشون بين الناس ولا ينقطعون للخدمة الدينية ، وقد يكتبون فى الحكمة الالهية أو يكتبون فى المعاملات والمكاسب أو لا يشتغلون بالكتابة ، ولكنهم اذا غربت عنهم صفة واحدة — هى صفاء القلب لله — لم يحسبوا من الصوفية ولم يسلكوا أنفسهم فى عداد أهل التصوف بسمة أخرى من سماتهم المشهورة ..

ان المزية الصوفية الخاصة هى مزية الايمان بالله على الحب لا على الطمع فى الثواب أو على الخوف من الحساب والعقاب ، ومثلهم فى ذلك مثل الفرد المثالى فى بيئته الاجتماعية ، فان الناس عامة يقنعون بواجبهم الاجتماعى الذى لا يجاوز الحذر من مخالفة القانون والأمل فى خيرات المجتمع ، ولكن الفرد المثالى يخدم البيئة الاجتماعية بباعث من الغيرة التى لا تنظر الى الجزاء بل تعمل وتثابر على عملها مع سوء الجزاء أو مع اليقين من العقاب ..

وكذلك الصلة بين الصوفى وربه انما هى صلة قائمة على المحبة لا على مجرد الطاعة لأوامره والخوف من نواهيه ، فان المحب يعطى من عنده فوق ما يؤمر به ولا ينتظر الطلب ليستجيب اليه ، وكلهم يقول مع رابعة العدوية : « اللهم ان كنت تعلم أننى أعبدك طمعا فى جنتك فاحرمنى نعيم جنتك ، وان كنت تعلم أننى أعبدك رهبة من نارك فعذبنى بنارك » ..

وكل من نظم منهم شعرا عبر بكلمة الحب عن هذه الصلة الالهية ، كما قال ابن عربى :

ادين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب دينى وايمانى

أو كما قال ذو النون :

وأقضى وما ماتت اليك صبابتى ولا قضيت من صدق حبك أوطارى

أو كما قال اليافعى :

فلو شاهدت ذاك الجمال عيوننا سكرنا وغبنا عن جميع العوالم
وملنا نشاوى من شراب محبة وباح بمكنون الهوى كل كاتم

وهذا « السكر » هو الذى يسمونه بخمر المحبة التى خلقت قبل أن يخلق الكرم كما قال عمر بن الفارض :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم
صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا ونور ولا نار وروح ولا جسم

ويرون أن المحبة لا توليهم حق الجزاء لأنهم لايلهمون المحبة الا بنعمة من الله وفضل منه يستوجب المزيد من المحبة ، وفى ذلك تقول رابعة العدوية :

أحبك حبين حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراكا
وما الحمد فى ذا وفى ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

ولسنا نعرف لغة وسعت من شعر الحب الالهى ما وسعته اللغة العربية كثرة وتعددا فى الأساليب ، فاذا أضيفت اليها لغات الأمم الاسلامية كالفارسية والتركية والأردية ولغات أهل الملايا رجح ديوان هذا الشعر على المنظوم منه فى جميع لغات العالم بلا استثناء الأناشيد الدينية التى ترتل فى المعابد . وقد اشتهرت الهند قديما بكثرة قصائدها وأناشيدها ولكنها لم تستغن بعد دخول الاسلام اليها عن توفير ذخيرتها من تلك

القصائد والأناشيد بترجمة الشعر الاسلامى واقتباسه فى دعواتها وصلواتها . فترجم تاجور قصائد أستاذه « أكبر » وترجم السردار جوكندراسنج Singh دعوات الانصارى عبد الله الى اللغة الانجليزية وقال المهاتما غاندى فى مقدمة الترجمة : « ان المترجم جدير بالتهنئة لأنه يسر لنا أن نقرأ أقوال الصوفى عبد الله الانصارى باللغة الانجليزية . ولقد أعطى الاسلام العالم نخبة من الصوفيين لايقلون عن الهنديين والمسيحيين ، وانه ليحسن فى هذا الوقت الذى يعرض لنا الجحود فى صورة الدين أن نذكر أنفسنا بخير ما أخرجته العقول المتدينة بجميع الأديان وخير ماقالته ، والا نظل كتلك الضفدعة التى تظن فى بئرها أن الكون كله ينتهى عند جدرانها . فلا يخطرن لنا أن دياتتنا وحدها هى التى تحتوى الحقيقة كلها وأن ما عداها زيف وباطل .. »

وينبغى أن يكون شيوع التصوف بهذه الكثرة فى بلاد الاسلام ، فلا يستغرب ذلك كما يستغرب فى البلاد التى تدين بأديان تتوسط فيها الكهانة ومراسم المعابد بين المرء ومعبوده . لأن الاسلام هو الدين الوحيد الذى يسمح باستقلال الصلة بين المخلوق والخالق ويستطيع العابد فيه أن يتوجه الى الله بضميره فردا بغير وساطة من سادن ولا شعائر فى محراب . ومتى تفتح للمسلم طريق الاتصال بالله على شريعة الحب واستقلال الضمير فليس فى دينه ما يحجبه عن طلب الحكمة الالهية من هذا الطريق ولا من التعمق فى استطلاع الحقائق وكشف الأسرار فى الكون وفيما بين سماء الله وأرضه من العجائب والخفايا كما تعلم من آيات كتابه ومن وصايا نبيه ومن فريضة التفكير على التعميم ..

وينبغى لسبب آخر أن يكون الصوفية من المسلمين بهذه الكثرة فى بلاد الاسلام كافة ، لأن الاسلام يرفض الرهبانية والانقطاع عن الدنيا فلا ملاذ فيه للفرد اذا نبا به مجتمعه وأنكر على قومه ما يخالف طريقته فى العقيدة الا أن يلجأ الى ضميره ويتخذ لنفسه مذهبه الذى يحاسب عليه نفسه ولا يحاسب عليه سواه بين يدى الله ..

فاذا فرقنا بين الصوفية والانقطاع عن الدنيا فالديانات الأخرى قد أخرجت من الرهبان والنساك المنقطعين أكثر ممن أخرجهم الاسلام بغير مراء ، الا أن الأمر يختلف عند الكلام على الصوفية الاسلامية ، فان عدد الصوفيين ذوى الآراء والأقوال بين المسلمين أكثر من أمثالهم فى جميع الديانات الأخرى ، واذا جمعت أقوال المتصوفة فى الاسلام ملأت الأسفار الكبار وطرقت كل باب من أبواب الحكمة الالهية عرفه المتدينون ، ويتسع التصوف الاسلامى بأنواعه كما يتسع بعدد المتصوفين ، فان الصوفية ــ كما هو واضح ــ أنواع ومذاهب ، وكل نوع من أنواعها وكل مذهب من مذاهبها قد كان له أئمة وأشياع بين الأمم الاسلامية ، وتلك مسألة مفهومة بالبداهة. فقد دان بالاسلام أناس من الهنود والفرس والطورانيين والحاميين ، كما دان به العرب واخوانهم من الساميين ، ولكل أمة مزاجها ولكل مزاج أثره فى الوجهة الصوفية . فلا عجب أن يتسع الاسلام لكل نوع من أنواع الحكمة الصوفية عرفه المتدينون ..

فالصوفية من حيث الموضوع نوعان عظيمان : نوع العقل والمعرفة ونوع القلب والرياضة ، والصوفية من حيث موقعها من الدنيا كذلك نوعان : نوع يتخطاها وينبذها ، ونوع يمشى فيها ويصل منها الى الله ، ويتأدى من الخلق الى الخالق جل وعلا . وكل هذه المذاهب عرف فى الاسلام على أوفاه . فمن الصوفية العقليين طلاب المعرفة من يحسب فى عداد الفلاسفة الأفذاذ ، ولا نعرف فى عقول الفلاسفة عقلا يفوق عقل الغزالى فى قوة التفكير ، ولا نعرف موضوعا من موضوعات الحكمة الالهية لم يلتفت اليه محيى الدين بن عربى ، وقد قيل ان ذا النون المصرى كان فى طبقة جابر بن حيان فى علوم الكيميا ، وأنه كان من الباحثين فى طلاسم الآثار الفرعونية ..

وهؤلاء الصوفيون العقليون يذهبون بالعقل الى غاية حدوده ولا يتهيبون الشكوك والاعتراضات بل يقولون بلسان الغزالى ان الشك

أول مراتب اليقين ، ولكنهم متى بلغوا بالعقل غايتـه ملكتهم نشـوة الوجدان فأسلموا أمرهم كله الى الايمان . وليس اشتغالهم بالعقل مانعا لهم أن يشتغلوا بالرياضة النفسية وانما يشتهرون بأفكارهم لأنها الصلة بينهم وبين تلاميذهم ومريديهم وقرائهم وتغلب شـهرتهم بالفكر على شهرتهم بالرياضة ..

أما الصوفيون القلبيون فهم يلتمسون المعرفة المباشرة برياضة النفس على قمع الشهوات ، وعندهم أن شهوات الانسان هى الحائل بينه وبين النور . فاذا ملك زمامها وأفلت من قيودها تكشف له النور ووصل الى مرتبة العارفين ، وأغناه صفاء النفس عن دراسـة الدارسـين وبحوث الباحثين ..

والصوفية من حيث علاقتها بالدنيا نوعان كما تقدم : نوع يرفضها لأنها وهم وغشـاوة مزيفة كالطلاء الذى يوضع على المعدن الخسيس ليخيل الى الأنظار أنه معدن نفيس ، ونوع آخر يخوض غمار الدنيـا ليبتليها ويمتحن نفسه بتجاربها وغواياتها ، وعنده أنها جميلة لأنها من خلق الله ، وكل ما يخلقه الله جميل ..

وهذا النوع من الصوفية أقرب أنواعها الى الاسلام ، وليس على المسلم حرج أن يرى للدنيا ظاهرا خداعا وباطنا صادقا أجمل من ظاهرها ، فان قصة الخضر مع موسى عليهما السلام تدور كلها على التفرقة بين الظواهر والبواطن فى الأحكام والنيات ..

الا أن الصـوفى المسلم يقاوم مطامع الدنيا لأنها تحجبه عن حقائقها العليا ، ويضربون المثل لذلك بالغزال الظمآن فى الصحراء .. فلا حرج عليه أن يطلب الرى من المـاء ، ولكنه اذا غفل عن نفسه لم يسلم من خداع السراب ، فانقاد الى الهلاك . فاذا أصابه الظمأ فليعلم موارد الماء وليكن على حذر من موارد السراب ، وليفرق كما يقولون بين سراب لا شراب فيه وبين شراب لا سراب حوله ، وتلك هى الرياضـة التى تستفاد من قمع الشهوات ، وكثيرا ما يبحث الأوربيون فى التصـوف

ويقصدون به الكلام على أشخاص المتصوفين الذين ظهروا فى البلاد الاسلامية ، وقليلا ما يبحثون فى هذا التصوف ويقصدون به مذاهب التصوف التى يسمح بها الاسلام ..

فالدين الاسلامى قد انتشر فى أقطار شاسعة كانت فيها من قبله عبادات وثنية وغير وثنية ، وقد تسرب بعضها الى أبناء تلك الأقطار واختلط بعضها بالعقائد الاسلامية من طريق الوراثة والاستمرار ، ولم يسلم التصوف من تلك الأخلاط فاقترن فى أقوال أناس من المنتسبين الى الاسلام عما يجوز وما لايجوز . وعلى الجملة يمكن أن يقال ان الاسلام ينكر من تلك المذاهب مذهبين منتشرين فى الصوفية على عمومها .. ينكر مذهب الحلول كما ينكر المذهب القائل بوحدة الوجود ، فلا يقر الاسلام مذهبا يقول بحلول الله فى جسد انسان ، ولا يقر مذهب القائلين بفناء الذات الانسانية فى الذات الالهية ، واذا تحدث المتصوف المسلم عن الفناء فسره بفناء الشهوات أو فناء الأنانية وحلول محبة الله محلها من القلوب والأرواح ..

ولا يقر الاسلام مذهبا يقول بوحدة الوجود ، أو يقول بأن الله هو مجموعة هذه الموجودات ، وأن الكون كله بسمائه وأرضه ومخلوقاته العلوية والسفلية هو الله ، واذا أجاز المتصوف المسلم معنى من معانى الوحدة الوجودية فهى عنده وحدة الفضائل الالهية ووحدة التوحيد . وقد يوفق المسلم الصوفى بين الظاهر والباطن فيقول ان الشريعة من غير الحقيقة رياء وكذب ، وأن الحقيقة من غير الشريعة اباحة وفسوق ، وقد يوفق بين الأمور الدنيوية والأمور الأخروية بمذهب جميل معتدل بين الطرفين . فليس الزاهد من لا يملك شيئا ، بل الزاهد عنده لكن لا يملكه شيء . فهو مالك للدنيا غير مملوك لها بحال ..

وظل المتصوفة والمنتسبون الى الطرق الصوفية من المتأخرين يبرأون من القول بالحلول ووحدة الوجود واسقاط التكليف ويعتزلون من يقول بها على وجوهها المنقولة من الديانات الوثنية ، ولوحظ ذلك فى القانون

الذى استشير فيه شيوخهم وصدر فى الديار المصرية بلائحة الطرق الصوفية (سنة ١٣٢٠ هجرية و ١٩٠٣ ميلادية) وتقرر المادة الثانية من بابه الخامس : « أن كل من يقول بالحلول أو الاتحاد أوسقوط التكليف يطرد من الطرق الصوفية كافة » ..

وهذا الفارق الفاصل بين الصوفية الاسلامية والصوفية الدخيلة هو الذى أوهم فريقا من المستشرقين أن التصوف كله مستعار من الهند وفارس أو من الأفلاطونية الحديثة ، وهو قول يصدق على مذهب الحلول ومذهب وحدة الوجود ولكنه لايصدق على مذاهب الصوفية التى تقوم على الحب الالهى والكشف عن الحقائق من وراء الظواهر ، فهذه الصوفية أصيلة فى الاسلام يتعلمها المسلم من كتابه ويصل اليها ولو لم يتصل قط بفلسفة البراهمة أو فلسفة أفلوطين . لأن أشواق الروح الانسانية قسط مشترك بين بنى آدم لا تنفرد به أمة من الأمم ولم تستوعبها عقيدة واحدة كل الاستيعاب دون سائر العقائد الدينية . والصوفية العربية مازجت صوفية الهند القديمة وصوفية الأفلوطينيين بالاسكندرية ، ولكنها أضافت اليها كما أخذت منها ، ولا حاجة بنا الى تعقب التواريخ والأسانيد لتقرير هذه الحقيقة البينة ، فان عناصر الصوفية الاسلامية مثبوتة فى آيات القرآن الكريم محيطة بالأصول التى تفرعت عليها صوفية البوذية والأفلوطينية . والمسلم يقرأ فى كتابه أن : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير» فيقرأ خلاصة العلم الذى يعلمه دارس اللاهوت فى كتب القديس توما حيث يقول : ان الله مباين للحوادث وانه يعلم بالتنزيه والابعاد عن مشابهتها ، أو يعلم بما ليس هو ولا يعلم بما هو عليه فى ذاته أو صفاته ، أيا كان المصدر الأول الذى استقى منه القديس توما أصول هذه العقيدة ..

ويقرأ المسلم فى كتابه :

« فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ » .

فيعلم ما يعلمه تلاميذ المتصوفة البوذيين حين يؤمنون أن ملابسة

العالم تكدر سعادة الروح وأن الفرار منه أو الفرار الى الله هو باب النجاة ..

ويقرأ المسلم فى كتابه :

« اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ »

« وَلِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ »

« ونَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ »

فلا يزيد المتصوفة الا التفسير حين يقولون ان الوجود الحقيقى هو وجود الله وأنه أقرب الى الانسان من نفسه لأنه قائم فى كل مكان يصلى له كل كائن :

« وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » .

والله يخلق ويأمر فهو فعال مريد وليست ارادته مانعة من الخلق كما يرى الفلاسفة اذ يقولون ان الارادة القديمة لا ينشأ منها اختيار حديث أو مخلوق حادث :

« أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » .

ومما يعلمه المسلم من كتابه أن عقل الانسان لايدرك من الله الا ما يلهمه اياه لأنه تعالى :

« يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ » .

ومنه يعلم الخلاف ما بين عالم الظاهر وعالم الباطن أو عالم الحقيقة وعالم الشريعة لأنه يقرأ مثلا واضحا لهذا الخلاف فيما كان من الخضر وموسى عليهما السلام من خلاف :

« فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ

لَدُنَّا عِلماً . قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً . قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا . قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَاأَعْصِي لَكَ أَمْرًا . قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً . فَانطَلَقَا حَتَّى اذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً امْرًا . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ انَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا . فَانْطَلَقَا حَتَّى اذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ انَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً . قَالَ انْ سَأَلْتُكَ عنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً . فَانْطَلَقَا حَتَّى اذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ، قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً . أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً . وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْراً . فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً . وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً

من رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ».

وهذه آيات بينات يقرؤها جميع المسلمين فى كتابهم الذى لايختص به فريق منهم دون فريق وبينهم ولا شك أناس مطبوعون على التصوف واستخراج الأسرار الخفية والمعانى الروحانية من طوايا الكلمات ، فاذا عمد هؤلاء الى تفسير تلك الآيات وما فى معانيها فليس أيسر عليهم من الوصول الى لباب التصوف الذى شغلت به خواطر الحكماء فى جميع الأحوال (١) ..

واذا آمن الصوفى المسلم بالكشف عن الحقائق من وراء الظواهر فهو لاينتهى من التفرقة بينهما الى اسقاط الشريعة أو اسقاط ما تأمره به من التكليف أو اباحة ما تحظره من المحرمات ، لأن الحقيقة عنده لا تنقض الشريعة بل تتممها وتكشف ما استتر من حكمتها ، وتظهر ما خفى من أسباب ظواهرها كما فعل الخضر فى كل قضية خفيت على صاحبه فكشف له من حقيقتها عن حكم الشريعة فيها . وقد كان أقطاب الصوفية يقيمون الفرائض ويصلون ويصومون ويحجون الى البيت ويعطون الصدقات ، وتحدث رجل أمام أبى القاسم الجنيد بحديث المعرفة فقال : ان أهل المعرفة بالله يصلون الى ترك الحركات من باب البر والتقوى الى الله . فقال الجنيد : ان هذا قول قوم تكلموا باسقاط الأعمال ، وهذه عندى عظيمة . والذى يسرق ويزنى أحسن حالا ممن يقول هذا . وان العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله واليه رجعوا فيها . ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة الا أن يحال بى دونها ، وانه لأوكد فى معرفتى وأقوى فى حالى (٢) ..

قال صاحب كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف : « وأجمعوا على تعجيل الصلوات وهو الأفضل عندهم مع التيقن بالوقت ويرون تعجيل

---

(١) من كتاب أثر العرب فى الحضارة الاوروبية للمؤلف
(٢) طبقات الصوفية للسلمى

أداء جميع المفترضات عند وجوبها لايرون التقصير والتأخير والتفريط فيها الا لعذر . ويرون تقصير الصلاة فى السفر ومن أدمن السفر منهم ولم يكن له مقر أتم الصلاة . ورأوا الفطر فى السفر جائزا ويصومون ، واستطاعة الحج عندهم الامكان من أى وجه كان ، ولايشترطون الزاد والراحلة فقط . قال ابن عطاء : الاستطاعة اثنان : حال ومال . فمن لم يكن له حال يقله فمال يبلغه . وأجمعوا على اباحة المكاسب من الحرف والتجارات والحرث وغير ذلك مما أباحته الشريعة .. »

وليس من الانصاف أن تحمل على التصوف أوزار الأدعياء واللصقاء الذين يندسون فى صفوفه نفاقا واحتيالا أو جهلا وفضولا ، فانه ما من نحلة فى القديم والحديث سلمت من أوزار اللصقاء الذين ينتمون اليها من غير أهلها ، ولكن التصوف على حقيقته الكاملة هو حرية الضمير فى الايمان بالله على الحب والمعرفة ، وبلوغ هذه المرتبة هو فضيلة الاسلام الذى أطلق ضمير الفرد من عقال السيطرة الروحيــة ويسر له أن يلوذ بسريرته هذا المــلاذ الأمين الذى لايداخله فيه حسيب أو رقيب غير حسيبه ورقيبه بين يدى الله . ولا غنى عن مثل هذا الملاذ فى زمن من الأزمنة ولا فى جماعة من الجماعات ، ولاسيما الأزمنة التى تبتلى فيهــا الضمائر الصوفية بالقلق بين الجماعات المضللة عن سوائها ، جهلا بحقيقة الدين أو جمودا على المألوف من بقايا الأقدمين . ففى مثل هذه الأزمنة لايستغنى ضمير الانسان عن ملاذ يعتصم به ويأوى اليه بين جماعته وهو عامل فيها حريص على هدايتها غير معتزل لشئونها ، ولا حاجة بالمسلم فى أمثال هذه الأحوال الى ابتداع شىء فى أصول دينه فان أصول دينه الأولى قائمة على حرية الضمير تنهاه أن يستسلم لمــا يأباه رغبة أو رهبة أو مجاراة لعرف الأكثرين ، اذا كان الأكثرون لا يعلمون ..

وان أناسا من أبنــاء العصر الحــاضر يحسبون أن الصوفية بقضها وقضيضها تراث قديم مهجور ولكنهم يعلمون كل يوم ــ وسيعلمون غدا ــ ان الانسان لن يستغنى فى حياته يوما واحدا عن الصــوفية فى

ناحية من نواحيها ، لأن رياضة النفس ضرورة لازمة كرياضة الجسد ، وأكبر ما يلقاه الناس فى العصر الحاضر فانما هو افلات زمام الانسان العصرى من يديه ، ولا غنى له يوما عن ذلك الزمام ، ولا غنى له فى سياسة جسده عن بعض الحرمان باختياره وعن بعض الشدة برضاه ، وأحرى أن يكون ذلك شأنه فى سياسة النفوس ..

والمجتمع الاسلامى أحق المجتمعات بالتصوف وأولاه بحرية الضمير التى يسمو اليها الانسان كلما آثر لنفسه الايمان بالله على الحب والمعرفة ولم يقنع بحظ الثواب والعقاب . لأن الاسلام يأبى له الرهبانية التى اعتصم بها أناس فى العصر القديم ، ولا يرضى لها بعض المذاهب « الوجودية » فى عصره الحاضر . وقديما كان صاحب الضمير اليقظان يتبرم بمجتمعه فيهجره الى صومعة الدين ، وحديثا تبرم بعض الناس فى المغرب بمجتمعاتهم فاعتصموا بها بمذاهب الوجودية التى يلجأ اليها الفرد كلما اشتد عليه طغيان العرف الاجتماعى ، منطلقا من قيوده تارة الى الاباحة وتارة الى عزلة الوجدان . ولكن الاسلام يفتح لضمير الفرد مسلكا واسعا غير الرهبانية وغير الوجودية بما فيها من خير وشر ، ويقيم له صومعته فى أعماق نفسه ولا حدود لها غير حدود الكون بما وسع من سماوات وأرضين ..

لا جرم وسعت سماحة الاسلام عقائد المتصوفة وهم فى رحابه الفسيحة لايفارقونها ولا يعتزلون دنياهم حيثما أتوا اليها ، ونشأ فى عصور الاسلام جمهرة من أقطاب الصوفية المتفكرين والمتريضين لا تضارعها جمهرة من أبناء النحل العالمية فى وفرة عددها ولا فى ذخائر حكمتها ..

وعلى كثرة الضحايا من المتصوفة فى العالم العربى لم يذهب أحد منهم ضحية لمذهبه قط بغير استثناء القضيتين المشهورتين اللتين قضى فيهما بالموت على الحلاج والسهروردى ولم يكن لهما ثالث فى مئات السنين منذ نشأ التصوف فى الاسلام الى هذه الأيام . ولعل هاتين

القضيتين ما كانتا لتشتهرا هذه الشهرة لولا الغرابة والندرة فيما هو من قبيلهما ، ولو صح ان الحلاج والسهروردى من ضحايا الصوفية ، وهما فى الواقع ضحية الفتنة وضحية السياسة ، وعليهما اصر كبير فيما جناه كل منهما على نفسه ، بعد اليأس من توبته واللجاجة فى دعواه ..

وعلى الباحث عن العلة الصحيحة فى مصير الرجلين أن يذكر أن احدى القضيتين حدثت فى ابان فتنـــة القرامطة وان الأخرى حدثت فى ابان الحروب الصليبية ، وأن الحلاج والسهروردى قد اختلطا بمعارك السياسة من قريب واتخذا فيها الأحزاب والأعداء ، واقتحمـــا مواقع الشـــبهة ومواضع الريبة غير متحرجين ولا متراجعين بعد طول الاغضـــاء عنهما وتمهيد معاذير التوبة لهما ، ولم يتهم أحد بمثل ما اتهما به ولقى من قومه مثل هذه المداراة ومثل هذا السماح ..

ولا نزيد فى قضية الحلاج على رواية أخباره فيما يمس قضيته ورواية كلامه كما جاء فى كتبه وقصائده ..

قال الحافظ أبو بكر أحمد على الخطيب فى تاريخ بغداد : كان جده مجوسيا اسمه محمى من أهل بيصاء فارس . نشأ الحسين بواسط وقيل متستر وقدم بغداد فخالط الصوفية وصحب من مشيختهم الجنيد بن محمد وأبا الحســين النورى وعمرا المكى . والصــوفية مختلفون فيه ، فأكثرهم نفى الحــلاج أن يكون منهم وأبى أن يعد فيهم ، وقبله من متقدميهم أبو العباس بن عطاء البغدادى ومحمـــد بن حفيف الشيرازى وابراهيم بن محمد النصراباذى النيسابورى وصححوا له حاله ودونوا له كلامه حتى قال ابن حفيف : الحسين بن منصور عالم ربانى . ومن نفاه عن الصوفية نسبه الى الشعبذة فى فعله والى الزندقة فى عقله ، وله الى الآن أصحاب ينسبون اليه ويغلون فيه ، وكان للحلاج حسن عبارة وحلاوة منطق وشعر على طريقة التصوف » ..

ثم روى الخطيب بعض ما اشتهر عنه من أخبار السحر ومنها انه يخرج للناس فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء ويمد يده الى

الهواء فيعيدها مملوءة دراهم عليها مكتوب : « قل هو الله أحد » ، ويسميها دراهم القدرة ، ويخبر الناس بما آكلوه وما صنعوا فى بيوتهم. ويتكلم بما فى ضمائرهم ، وروى فى أخبار متكررة من قبيلها أنه بعث. رجلا من خاصة أصحابه وأمره أن يذهب الى بلد من البلاد بالجبل ، وأن. يظهر لهم العبادة والصلاح والزهد ، فاذا رآهم قد أقبلوا عليه وأحبوه واعتقدوه أظهر لهم أنه قد عمى ثم يظهر لهم بعد أيام أنه قد تكسح ،. فاذا سعوا فى مداواته قال لهم : يا جماعة الخير .. انه لاينفعنى شىء مما تفعلون ، ثم يظهر لهم بعـــد أيام أنه قد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام وهو يقول له ان شفاءك لايكون الا على يد القطب ، وأقبل الحلاج حتى دخل البلد فأظهر الرجل شـــفاءه على يديه ، وخرج منه الحلاج ووراءه أبنـــاء البلد من الكبراء والعامة يتوسلون اليه أن يقيم بينهم وله منهم ما يشاء ..

وتقل المؤرخون له ومنهم الخطيب وابن الأثير وابن كثير أن الوزير حامدا رأى كتابا يسقط فيه الحج ويبدل بمناسكه مناسك من عنده تتخذ. فى البيوت ، وسأله القاضى أبو عمر : من أين لك هذا ؟.. قال من كتاب. الاخلاص للحسن البصرى ، وكان القاضى قد قرأ الكتاب وليس فيه. شىء مما قال ..

ونسب اليه ، وتناقله المؤرخون ، أنه كان يســـمع القرآن ويقول :. يمكننى أن أؤلف مثل هذا ، وشوهد وهو يخط فى صفحات بين يديه. سورا يعارض بها القرآن ..

ولحقت به شبهـــات فى مسلكه مع أهل بيته حدثت عنها امرأة ابنه سليمان فقالت : كنت ليلة نائمة فى السطح ، وابنة الحلاج معى فى دار السلطان وهو معنا ، فلما كان فى الليل وقد غشينى فاتنبهت مذعورة. منكرة لما كان منه ، فقال : انما جئتك لأوقظك للصلاة ، ولما أصبحنا نزلت الى الدار ومعى بنته ، ونزل هو فلما صار على الدرجة بحيث يرانا ونراه قالت بنته : اسجدى له ! .. فقلت لها : أو يسجد أحد لغير الله ؟..

وسمع كلامى لها . فقال : نعم .. اله فى السماء واله فى الأرض . قالت : ودعانى اليه ، وأدخل يده فى كمه وأخرجها مملوءة مسكا فدفعه الىّ ، وفعل هذا مرات ، ثم قال : اجعلى هذا فى طيبك ..

وسبب القبض عليه ان الوزير حامد بن العباس انتهى اليه أن الحلاج قدموه على جماعة من الحشم والحجاب فى دار السلطان وعلى غلمان نصر القشورى الحاجب ، وانتشر أصحابه وتفرقوا فى النواحى ، وعرضت علة للمقتدر بالله فى جوفه وقف الحاجب نصر على خبرها فوصف له الحلاج واستأذنه فى ادخاله اليه فأذن له ووضع يده على الموضع الذى كانت العلة فيه وقرأ عليه فاتفق أن زالت العلة ، ولحق والدة المقتدر بالله مثل تلك العلة فشفاها ، وشاع عنه أنه أحيا ببغاء لولى العهد بعد موتها ، وقام للحلاج بذلك سوق فى الدار وعند والدة المقتدر والخدم والحاشية ..

أما ما أخذ عليه من كلامه فمنه قوله فى كتاب طاسين الأزل انه هو الحق ، وقوله فى أبيات :

يا سِرّ سرّ يدق حتى — يخفى على وهم كل حى
وظاهرا باطنا تجلّى — لكل شىء بكل شى
ان اعتذارى اليك جهل — وعظم شك وفرط عى
ياجملة الكل لست غيرى — فما اعتذارى اذن الىّ

وقوله :

سبحان من أظهرنا سوته — سر سنى لاهوته الثاقب
ثم بدا فى خلقه ظاهرا — فى صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه — كلحظة الحاجب بالحاجب

وكانت حركة الحلاج بين أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع للهجرة وهى فترة وافقت أيام فتنة القرامطة وثورة الزنج وشغب الحنابلة ، وله بينهم أشياع وأتباع متفرقون فى الأمصار ، فاتجهت اليه التهم مرة بعد مرة وتحرج القضاء والفقهاء من ادانته حتى تقوم الحجة

القاطعة عليه . وحوكم بعد سنوات من الاغضاء والمطاولة فشهد عليه القضاة بما يستوجب عقاب المفسدين فى الأرض وكان منهم نحو ثمانين فى ساحة القصاص فسئلوا مرة أخرى قبل اجراء القصاص عليه فأعادوا شهادتهم بصوت جهير على مسمع من الناس ..

ونحن فى هذا الكتاب لا ندرس قضية الحلاج ولا نمحص ما قاله ولا ما قيل عنه . فيجوز أنه مشعوذ طامع فى الملك توسل بالاستهواء الى جمع الجموع وتأليب الأنصار ثم نشرهم فى أطراف البلاد وعند مقامات التدبير والتصريف كقصر الخلافة ودواوين الوزارة ، توطئة للوثبة عند سنوح فرصتها ..

***

ويجوز أنه من زمرة « الملامتية » الذين يتعرضون للشبهات ويستدعونها عمدا وقصدا للتكفير عن خطاياهم وابراء أنفسهم من مظنة النسك طلبا لثناء الناس عليهم ..

ويجوز أنه رجل مفترى عليه لعلة خفية أزعجت ولاة الأمر فأثبتوا عليه بالتلفيق والاكراه جريمة لم يقترفها ..

فكل وجه من هذه الوجوه ينفى عن الاسلام دعوى المدعين أنه يضيق صدرا بالفكر الصوفى والمعانى الروحية ، فاذا عنّ لأمير أو وزير من ولاة الأمر أن ينكب انسانا من خصومه لاختلاف فى الرأى والطريقة لم يكن له مناص من اتهامه بالتهمة التى تستحق العقاب فى كل شريعة دينية أو دنيوية ، وأكبرها تهمة الفتنة والافساد فى الأرض أو الاخلال بالسلم والخروج على دستور الجماعة ..

وقضية شهاب الدين السهروردى نسخة موجزة من قضية حسين بن منصور الحلاج ، سواء فيما وقع منه فعلا وفيما كان مظنونا أن يقع منه ، أو مظنونا أن يقع من أمثاله فى نزعاته وأحواله ..

عاش السهروردى فى عصر الحروب الصليبية وفى أخطر ميادينها وهو مدينة حلب عاصمة الملك الظاهر بن الملك صلاح الدين ، واشتهر

السهروردى كما اشتهر الحلاج بأعمال الخوارق والأعاجيب التى يحسبها بعضهم من السحر ويحسبها الآخرون من الكرامات ..

جاء فى النجوم الزاهرة أنه « كان يعانى علوم الأوائل والمنطق والسيمياء وأبواب النيرنجيات » ..

وجاء فى طبقات الأطباء أنه كان مفرط الذكاء فصيح العبارة وكان علمه أكثر من عقله ، ثم جاء فيه : « يقال انه يعرف علم السيمياء » ..

وروى ابن خلكان فى وفيات الأعيان منقولا عن بعض فقهاء العجم : « أنه كان فى صحبته وقد خرجوا من دمشق . قال : فلما وصلنا الى القابون ــ القرية التى على باب دمشق فى طريق من يتوجه الى حلب ــ لقينا قطيع غنم مع تركمانى فقلنا للشيخ : يامولانا .. نريد من هذه الغنم رأسا نأكله ، فقال : معى عشرة دراهم ، خذوها واشتروا بها رأس غنم ، وكان هناك تركمانى فاشترينا منه رأسا بها ومشينا قليلا ، فلحقنا رفيق لنا وقال : ردوا هذه الرأس خذوا أصغر منها ، فان هذا ماعرف يبيعكم ، يساوى هذه الرأس أكثر من ذلك ، وتقاولنا نحن واياه ، فلما عرفه الشيخ ذلك قال لنا : خذوا الرأس وامشوا وأنا أقف معه وأرضيه ، فتقدمنا نحن وبقى الشيخ يتحدث معه ويطيب قلبه ، فلما أبعدنا قليلا تركه وتبعنا وبقى التركمانى يمشى خلفه ويصيح به وهو لا يلتفت اليه ، فلما لم يكلمه لحقه بغيظ وجذب يده اليسرى ، وقال : أين تروح وتخلينى . واذا بيد الشيخ قد انخلعت من عند كتفه وبقيت فى يد التركمانى ودمها يجرى . فبهت التركمانى وتحير فى أمره ، فرمى اليد وخاف ، فرجع الشيخ وأخذ تلك اليد بيده اليمنى ولحقنا ، وبقى التركمانى راجعا ، وهو يلتفت اليه حتى غاب عنه ، فلما وصل الشيخ الينا رأينا فى يده اليمنى منديلا لا غير » ..

وكان للسهروردى طموح كطموح الحلاج الى السيادة والعظمة أفصح عنه لبعض صحبه ومنهم الشيخ سيف الدين الآمدى الذى قال فيما حدث عنه : « اجتمعت بالسهروردى فى حلب فقال لى : لا بد أن أملك

الأرض ، فقلت له : من أين لك هذا ؟.. قال : رأيت فى المنام كأنى شربت ماء البحر . فقلت : لعل هذا يكون اشتهارا للعلم وما يناسب هـذا ، فرأيته لايرجع عما وقع فى نفسه ورأيته كثير العلم قليل العقل » ..

***

ونسب اليه فيما نسب من التهم التى أدين بها أنه كان يدعى النبوة ، ولكنها تهم لم تتحقق أنباؤها لأن الروايات التى وصلت الينا من سيرته فى أواخر أيامه ملتبسة متضاربة حتى لقد رويت عن موته ثلاث روايات تقول احداها انه مات صبرا باختياره . وتقول رواية أخرى انه مات خنقا . وتقول غيرها انه مات مقتولا بالسيف بعد صلبـه ، ولا تتفق الروايات على مشهد قتله ، مع ما قيل من التشهير به قبل دفنه ..

غير أن القصة المتواترة أن الفقهـاء رفعوا أمره الى صـلاح الدين وأبلغوه خوفهم منه على عقيدة ابنه الملك الظافر وعلى سياسة ملكه ، فانتهى الأمر الى دعوته للمنـاظرة بحضرة الملك فكان مما قاله فى تلك المناظرة أن ارسال نبى بعد محمد عليه السلام غير مستحيل ..

واذا تعسر جمع أخبار القصة بما بدا واستتر منها فليس من العسير أن نعلم ما يجنيه على نفسه شاب كثير الفطنة قليل الحكمة ذرب اللسان مصطنع الشعوذة والاستهواء ويخيل اليه أنه موعود بملك الدنيـا وأن دعوى النبوة مفتوحة لمن يتهيأ لها بمعرفته وفصاحته وقدرته على الاقناع بالبرهان أو بالكرامة ، وليس مما يخطر على البال ولا مما كتبه المؤرخون أو أشاروا اليه بهذا الصدد أن الفكرة الصوفية كانت ذريعة من ذرائع المحاكمة والقصاص ، وليس من أدب الصوفية أن يتعرض طالب الحقيقة لشبهة من الشبهات بين العامة يتـذرع بها من يشاء الى اتهامه واثبات التهمة عليه ..

والقضيتان ــ بعد ــ قد اشتهرتا هذه الشهرة بين المعنيين بالاسلاميات لأنهما نادرتان فى تواريخ أمم الاسلام . فان لم تكن هذه الندرة قاطعة بانفرادهما فهى مثال للحوادث التى ينساق فيها بعض الدعاة الى مزالق

الخطر ، ولا شأن فيها لحرية التفكير ولكنها مآزق السياسة فى أوقات الحرج والريبة يرتطم بها من يتصدى لها ويتورط فيها ، وقلما يسلم من بعض وزرها وان تراءى لقوم أنه ضحية لأوزارها ..

***

ان الاسلام قد وضع التصوف موضعه الذى يصلح به ويصلح من يريده ، فليس هو بواجب وليس هو بممنوع ، ولـكنه ملكة نفسية موجودة فى بعض الطبائع لازمة لمن وجدت فى طبائعهم ، وألزم ما تكون لهم حين تفترق مقاييس الأخلاق ومعايير القيم الروحية بينهم وبين مجتمعاتهم ، فان الفرد اذا افترق ما بينه وبين مجتمعه من هذه القيم تجنبه بالرهبانية ولا رهبانية فى الاسلام ، أو صاغ فضائله على وفاق ضميره وهو مقيم فى مجتمعه لا حسيب عليه بينه وبين ربه ، وتلك هى شريعة الاسلام الذى لا سلطان فيه لمخلوق على مخلوق فى طاعة الله ..

ومهما تكن للنفس الانسانية من ملكة خلقية أو روحية فتلك أمانة لا تفريط فيها ولا خير فى المجتمع الذى يفرط فيها ويسلمها للضياع ، وقد يجوز احياء الملكة الصوفية على ملكات أخرى كما يجوز التخصص فى كل قدرة على غيرها من عوامل القدرة فى الطبائع والعقول ، ولكنها لازمة التخصص التى لا فكاك منها ، فاما التخصص والاحتفاظ واما الاهمال أو الانقطاع ..

« وليس فى التخصص ــ كما قلنا فى كتاب الفلسفة القرآنية ــ ايجاب شىء واستنكار شىء ، وانما هو سبيل التعميم والاستفادة من كل ملكة فى الذهن والذوق والروح ، ولا يوجب الاسلام التنسك على جميع المسلمين لأن أناسا منهم تخصصوا له وفضلوه على مطالب الروح أو مطالب الجسد الأخرى ، ولكنه يجيزه بالقدر الذى بيّناه وهو القدر الذى لا غنى عنه فى تدبير حياة الانسان ..

« فالملكات الانسانية أكثر وأكبر من أن ينالها انسان واحد ، ولكنها ينبغى أن تنال ، فكيف يمكن أن تنال ؟ ..

« انها لا تنال الا بالتخصص والتوزيع ، ولا يتأتى هذا التخصص أو هذا التوزيع اذا سوينا بينها جميعا فى التحصيل وألزمنا كل أحد أن تكون له أقساط منها جميعا على حد سواء ..

« ولا نقصر القول هنا على الملكات العقلية أو الروحية التى لايسهل احصاؤها ولا تحصيلها ولكن نعمّ به هذه الملكات ومعها ملكات الحس والجسد ، وهى محدودة متقاربة فى جميع الناس ..

« فهذه الملكات الجسدية ــ فضلا عن الملكات العقلية والروحية ــ قابلة للنمو والمضاعفة الى الحد الذى لا يخطر لنا على بال ولا نصدقه الا اذا شهدناه ..

« وقد رأينا ورأى معنا ألوف من الناس رجلا أكتع يستخدم أصابع قدمه فى أشياء يعجز الكثيرون عن صنعها بأصابع اليدين . يكتب بها ويشعل عيدان الثقاب ويصنع بها القهوة ويصبها فى الأقداح ويشربها ويديرها على الحـــاضرين ويسلك الخيط فى سم الابرة ويخيط الثوب الممزق ، ويوشك أن يصنع بالقدم كل ما يصنع باليمنى أو باليسار ..

ورأينا ورأى معنا ألوف من الناس لاعبى البليارد فى المسابقات العامة يتسلمون العصا ثم لايتركونها الا بعد مائة وخمسين اصابة أو تزيد ، ولعلهم لايتركونها الا من تعب أو مجاملة للاعبين الآخرين . وهم يوجهون بها الأكر الى حيث يريدون ويرسلونها بين خطوط مرسومة لا تدخل الأكر فى بعضها ولا تحسب اللعبة اذا لم تدخل فى بعضها الآخر . بحيث لو قال لك قائل ان هؤلاء اللاعبين يجرون الأكر بسلك خفى لجاز لك أن تصدق ما يقول ..

« ورأينا من يقذف بالحربة على مسافات فتقع حيث شاء ، ورأينا من ينظر فى آثار الأقدام فيخرج منها أثرا واحدا بين عشرات ولو تعـــدد وضعه بين المئات ، ورأينا من يرمى بالأنشوطة فى الحبل الطويل فيطرق بها عنق الانسان أو الحيوان على مسافة أمتار ..

« هذه هى الملكات الجسدية المحدودة ، وهذه هى آماد الكمال الذى

تبلغ اليه بالتخصص والمرانة والتوزيع ، فما القول اذا حكمنا على الناس جميعا أن يكسبوا أعضاءهم ملكة من هذه الملكات ؟.. اننا نخطىء بهذا أيما خطأ ونعطلهم به عن العمل المفيد ، ولكننا نخطىء كذلك اذا حجرنا على انسان لأنه أتقن ملكة من هذه الملكات الجسدية ، ولو جار فى نفسه على ملكات أخرى يتقنها الآخرون ..

« فاذا كنا قد جاوزنا بالقوى الجسـدية حـدودها المعهودة بالمرانة والتخصيص ، فما الظن بالقوى الروحية أو العقلية وهى لا تتقارب فى الناس هذا التقارب ولا تقف عند هذه الحدود ..

« واذا كان طالب القوة الروحيـة يؤثرها على جسده فلماذا نلومه ونحى عليه ونحن لا ننحى على اللاعب اذا آثر المهارة فى اللعب على المهارة فى فنون العقل أو على الكمال فى مطالب الروح ؟ ..

« اذا لمنا من يجور على جسده لأنه يضر الناس اذا اقتدوا به أجمعين فمن واجبنـا أن نلوم كل ذى ملكة وكل ذى فن وكل ذى رأى من الآراء . فما من واحد بين هؤلاء الا وهو يضر النـاس اذا اقتدوا به أجمعين ..

« ومما لا جدال فيه أن نوازع الجسد تحجب الفكر عن بعض الحقائق الاجتماعية فضلا عن الحقائق الكونية المصفاة ، ومما لا جدال فيه أن شواغل العيش وهموم الأسرة عائق عن بعض مطالب الاصلاح فى الحياة اليومية ، فضلا عن الحياة الانسانية الباقية على مر الدهور ، ومما لا جدال فيه أن طالب القوة الروحية كطالب القوة البدنية ، له حق كحق المصارع والملاكم وحامل الأثقـال فى استكمال ما يشـاء من ملكات الانسان ، ولسنا على حق اذا أخذنا عليه أنه جار على جسده أو لذات عيشه ، لأننا لا نلوم المصارع اذا نقصت فيه ملكة الفن أو ملكة العلم أو ملكة الروح ، ولو أصبح كل الناس مصارعين لفسد كل الناس ولكن لابد من المصارعة مع هذا ، ولا بد من المتفرغين لها اذا أردنا البقاء ..

« ولو أصبح الناس كلهم متصوفين معرضين عن شـواغل الدنيـا

لفسدت الدنيا وبطل معنى الحياة ومعنى الزهد فى الحياة . ولكن لابد من هذه النزعة فى بعض النفوس ، والا قصرنا عن الشـأو الأعلى فى مطالب الروح وفقدنا ثمرة التخصص أو ثمرة القصد الحيوى الذى ينظم لنا ثروة الروح وثروة العقول وثروة الأبدان . والقصد الحيوى مكفول بشريعة القرآن فى كل مطلب من هذه المطالب الروحية ، فهى مباحة لمن يطيقها وهى لا تفرض على جميع المسلمين ، ولا بد من هذه الاباحة ولا بد من هذا الاعفاء فانهما يجريان بالقدر الذى يفيد ويمنع الضرر فى كلتا الحالتين ..

المذاهب

الاجتماعية والفكرية

اذا اتسعت الديانة لقبول المذاهب الاجتماعية والفكرية فهى احدى ديانتين تختلفان ويبلغ الاختلاف بينهما حد التناقض فى هذه الوجهة ..

فهى اما ديانة تنفض يدها من أعمال الدنيا وتتجرد بضمائر أتباعها لمطالب الروحية أو المطالب الأخروية غير الدنيوية ..

أو هى ديانة تنظر الى الدنيا وتقيم قواعد الاصلاح الاجتماعى على أسس واسعة النطاق ثم توجب على الناس أن يتخيروا الأوقات لتطبيقها على حسب دواعيها ومطالب البيئات التى تتجدد فيها ..

والمقرر فى المقابلة بين الديانات أن المجتمع الانسانى يتطلب نصيبه من الديانة وان لم تشتمل على نصوص تتعرض للسياسة الاجتماعية . لأن الديانات جماعية وفردية ، بل هى ألزم للجماعة وأولى بالقيام بين ظهرانيها. لأن ضمائر الأفراد لا تنعزل بأعمالها عن شركائها فى الحياة الاجتماعية ، وعلى ما فيها من الصلاح والفساد تنتظم تلك الحياة أو ينتقض فيها النظام ..

وقد كانت البرهمية ديانة « غير دنيوية » لأنها تقوم فى جوهرها على سوء العقيدة فى الدنيا والايمان ببطلانها ، وغلبة الوهم على مظاهرها وخفاياها ، ولكنها تعرضت للمجتمع فقسمته الى طبقات وميزت كل طبقة منها بعزيتها فى الحكم والمعيشة ، وداخلت الناس فى المساكن والمطاعم فلا تفارقهم فى عمل يعملونه أو حركة يتحركونها ..

والمسيحية لم تتعرض للتشريع ولا للسياسة الاجتماعية ، لأنها نشأت فى بيئة ترجع بشرائعها المدنية الى الدولة الرومانية التى قيل عنها انها أم الشرائع فى الزمن القديم ، وترجع بشرائعها الدينية الى الهيكل اليهودى الذى يطلق اسم الشريعة على الدين كله ، لأن الاعتقاد عنده قائم كله

على التشريع ، ومع هذا ظهرت فى ظلال المسيحية دعوى الملوك الذين أقاموا حكمهم على الحق الالهى ، وظهرت فيها مراسم للسلطة الدينية أعم وأقوى من سلطة الدين فى غيرها ..

فالديانات فى الواقع العملى سواء فى آثارها الاجتماعية ، وان لم تكن سواء فى نصوصها التى تعرض لمسائل الاجتماع ، وكثيرا ما اصطدمت الديانات « غير الدنيوية » بالمذاهب الدنيوية على غير تفرقة بينهما ، لأنها من أساسها تجعل الحياة الروحية مناقضة للحياة الدنيوية كيفما كانت وعلى أية سنّة تسير ..

والاسلام لم يتجنب مسـائل الاجتماع لأن اجتنابها ليس من طبيعة الدين ، ولكنه عنى بهذه المسائل كما ينبغى أن تدركها عقيدة الانسان فى الجماعة البشرية ، ووكل الى عقيدته أن توفق بينها وبين الصـلاح الاجتماعى كما يقتضيه زمانه وتستوحيه الجماعة كلها من ضروراتها ومن قواعد دينها ، ولا فارق فى النهاية بين المصلحة كما تهتدى اليها الجماعة والمصلحة كما يوجبها الدين ..

والمذاهب الاجتماعية شىء واقع معروف المبادىء والغايات فى العصر الحاضر ، فعلاقة الاسلام بها كذلك شىء واقعى لا حاجة به الى الخوض فى النظريات والفروض الذهنية ، لأن مواضع الوئام أو النزاع بين جميع هذه المذاهب وبين نصوص الدين الاسلامى مسطورة معلومة لمن يريدها وقد كشفت عنها تجارب العمل كما كشفت عنها بحوث الباحثين ..

هذه المذاهب الاجتماعية ، ومعها المذاهب الفكرية ، كثيرة تتفرع على أصولها الكبرى ، ولكننا اذا عددنا منها هذه الأصول أغنانا البحث فيها عن البحث فى فروعها ، وبخاصة حين يدور البحث على القواعد الكبرى فى الاسلام والقواعد الكبرى فى أمهات مذاهب الاجتماع والفكر فى هذه الآونة ..

ان أصول المذاهب الاجتماعية قد تتلاقى فى هذه الآونة الى أصول

ثلاثة تحيط بها فى جملة مناحيها ، وهى الديموقراطية ، والاشتراكية ، والعالمية ..

أما مذاهب الفكر فأكثرها ذكرا فى العصر الحاضر مذهب التطور ومذهب الوجودية أو مذاهبها المتعددة بمقاصدها وان اتحدت بعنوانها ..

فما الذى يمنع المسلم أن يعمل للديموقراطية أو يعمل للاشتراكية أو يعمل للوحدة العالمية ؟ ..

وما الذى يمنع المسلم من أحكام دينه أن يقبل مذهب التطور أو يقبل الوجودية فى صورتها المثلى ؟ ..

ان المسلم أحق بالديموقراطية من أتباعها المحدثين والأقدمين ، لأنه — منذ أربعة عشر قرنا — يدين بمبادىء الديموقراطية الأولى التى لايصدق اسم الديموقراطية على نظام من النظم بغيرها ، وهى التبعة الفردية ، والحكم بالشورى ، والمساواة بين الحقوق ، والمحاسبة بالقانون ..

« كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ » (سورة الطور)

« وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ » (سورة الشورى)

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » (سورة الحجرات)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا انَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » (سورة الحجرات)

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) (سورة الإسراء)

(وَانْ مِنْ أُمَّةٍ الَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) (سورة فاطر)

ومتى آمن المسلم بهذه المبادىء فهو صاحب الحق فى اختيار مايرتضيه من نظم الديموقراطية ، بل فرض عليه واجب الدين — مع واجب المصلحة — أن يطلب الحكم على نظام من النظم التى تتوافر لها هذه المبادىء الأولى ..

وليس فى عقيدة المسلم ما يصده عن مذهب من مذاهب الاشتراكية الصالحة ، لأنه ينكر احتكار الثروة فى طبقة واحدة ، وينكر احتكار التجارة فى الأسواق عامة ، ويفرض على المجتمع كفالة أبنائه من العجزة والضعاف والمحرومين ، ويجعل حق الفرد رهينا بمصلحة الجماعة ، ومن سمحت عقيدته بهذه المبادىء لم تحرم عليه أن يأخذ من الاشتراكية ما أباحته له قبل أن توجد الاشتراكية والاشتراكيون ..

ينهى الاسلام عن حصر المال فى طبقة دون سائر الطبقات :

(كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ) (سورة الحشر)

ويمنع كنز الذهب والفضة :

(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (سورة التوبة)

وفى الحديث الشريف : « من احتكر طعاما أربعين يوما يريد به الغلاء فقد برىء من الله وبرىء الله منه » ..

ويحرم الاسلام أكل الأموال بالباطل من طريق التجارة بالديون :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (سورة آل عمران)

وقد ظهر فى الاسلام فقهاء اشتراكيون يستندون فى آرائهم الى السنن الاسلامية ولا يعرفون سندا غيرها لما يدعون اليه ، ومنهم فقهاء المذهب الظاهرى الذين يحرمون تأجير الأرض بغير عمل الا أن تكون أرض بناء وأن يكون الأجر لما عليها من بناء ، وأشهر هؤلاء الفقهاء الاشتراكيين الفيلسوف ابن حزم الظاهرى الذى يقول فى كتابه المحلى ان زرع الأرض لا يحل الا على أحد ثلاثة أوجه : اما أن يزرعها المرء بآلته وأعوانه وبذره وحيوانه ، واما أن يبيح لغيره زرعها ولا يأخذ منها شيئا . فان اشتركا فى الآلة والحيوان والأعوان دون أن يأخذ منه للأرض كراء

فحسن ، واما أن يعطى أرضه لمن يزرعها ببذره وحيوانه وأعوانه وآلته بجزء ويكون لصاحب الأرض مما يخرج الله تعالى مسمى اما النصف واما الثلث أو الربع أو نحو ذلك أكثر أو أقل ولا يشترط على صاحب الأرض شيء من كل ذلك ويكون الباقى للزارع ، قل ما أصاب أو كثر ، فان لم يصب شيئا فلا شيء له ولا شيء عليه . فهـذه الوجوه جائزة . فمن أبى فليمسك أرضه » ..

***

ورأى ابن حزم هذا مذهب يستند فيه الفقيه الفيلسوف الى حجة من الدين تجوز عنده على ما فصله فى كتابه ، فان لم تكن قاطعة عند غيره فالدين الذى يستنبط أمثـال ابن حزم من أحكامه ذلك الرأى لا يقال عنه انه يصد المؤمنين به عن الاشتراكية على طريقتها الوسطى بين الطرفين ، وليس فيها ما هو أوسط وأعدل ممن يمنع احتكار الثروة ويجعل للمحرومين حصة معلومة من الثروة العامة ، وهو مذهب الاجماع فى شريعة الاسلام ، وعليه تقوم احدى فرائضه الخمس ، وهى الزكاة ..

وانه لمما يناسب رسالة الدين أن يستوعب مذاهب الاجتمـاع ولا يستوعبه مذهب منها ، لأن هـذه المذاهب الاجتمـاعية تأتى وتذهب ويعتريها التعديل والتبديل جيلا بعد جيـل ، ولا يعقل أن يتغير يقين الايمان بحقيقة الوجود كلما تغيرت خطة من خطط العمل فى المصـالح الاجتماعية مهما يبلغ من صوابها عند العمـل بها واجرائها فى مجراها الموقوت ..

ومما يساق من أمثلة هذا أن ناقدى الاسلام من الغربيين أخذوا عليه أنه يعوق أعمال المصارف والشركات ومرافق التثمير والتعمير بما حرمه من الربا فى تثمير القروض ، وليس هذا النقد بصحيح لأن الاسلام لم يحرم قط عملا من أعمال التثمير يخلو من الاضرار بمن يحتاجون الى القروض ويبرأ من أكل أموال الناس بالباطل فى غير عمل مباح ، ولكن هذا النقد على أية حال ينقضى بصوابه وخطئه ولا تنقضى رسالة الدين

على اطلاقها ، وانما يقيس مصالح الأديان حقا من يقيسها على اتساع وامتداد وينظر الى الغد كما ينظر الى اليوم فلا يقضى بحكم من الأحكام فيها كأنه ختام العصور والمصالح جمعاء ، فهذا عصر الثروات الكبرى فى أيدى أصحاب الأموال يوشك أن ينقضى ويلحقه عصر ينادى فيه الاقتصاديون بملك الأمة لموارد الثروات ويقول فيه آخرون بمنع حيازة الأموال العامة فضلا عن فوائدها على قدر من الأقدار كائنا ما كان ..

وقد استوعب الاسلام مذاهب الاقتصاد فى عصر المصارف والشركات وقروضها وفوائدها دون أن يعوق مصلحة من مصالحها البريئة فى العرف المشروع ، وتمضى هذه المذاهب كما مضى غيرها فلا يؤوده بعدها أن يستوعب مذاهب الثروة فى أيدى الجميع ولا مذاهب الثروة فى أيدى الآحاد لايمنع منها الا ما يمنعه أولا وآخرا من ضرر أو ضرار ..

واذا كان دين المسلم لايمنعه أن يتخذ من مذاهب الديموقراطية والاشتراكية ما يرى صلاحه ، فالوحدة العالمية أمل من آماله وغاية من غايات الخلق فى اعتقاده ، وليس مبلغ الأمر فيها أنها رأى لايمنعه مانع من دينه ..

فالخالق جل جلاله قد خلق الشعوب والقبائل لتتعارف وتصطلح على العرف الحسن والمعرفة الرشيدة فتجمعها أسرة واحدة لا تفاضل بين أبنائها بغير التقوى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) (سورة الحجرات)

ولا يسهل الايمان بالوحدة العالمية على امرىء يؤمن بأن الله يصطفى سلالة من البشر دون سائر السلالات لغير فضيلة تحسب لها فى ميزانها غير انتسابها الى أرومة معلومة ..

ولا يسهل الايمان بهذه الوحدة العالمية على امرىء يؤمن بأن النجاة

فى ماضى العصور ومقبلها قسمة موقوفة على شرط لم يكمل فى غير زمن محدود لأناس محدودين ..

ولكن المسلم الذى يؤمن برب العالمين ويعلم أن النجاة قسمة لكل من سمع دعوة الهداية فاستجاب لها من الأولين والآخرين يبسط رواق الأخوة الانسانية على الغابرين والحاضرين ولايطرد منحظيرة الرضوان انسانا اتقى الله على هدى دين من الأديان ..

(إنَّ الذينَ آمَنُوا وَالذينَ هادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ)

***

وينبسط رواق الأخوة الانسانية على جميع الأجناس والأقوام كما ينبسط على جميع الملل والديانات فلا فضل لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى كما جاء فى أحاديث النبى العربى القرشى الى قومه والى صحبه وآله ، وليس بين الأخوين من هذه الأسرة العظيمة رجحان لغير ذى عمل راجح فى ميزان الخير والصلاح ..

وفى عقيدة المسلم عون له على النظر فى المذاهب الفكرية الحديثة — وهو مذهب التطور — فربما أعانه دينه على قبول مبادئه دون أن يقيده بقبول نتائجه التى تصح عند أناس ولا تصح عند آخرين ..

وليس فى مذهب التطور مبدأ أهم من تنازع البقاء وبقاء الأصلح ، وليس النظر فى هذين المبدأين محظورا على من يقرأ فى كتابه أن صلاح الدين والدنيا لايتفق للناس عفوا وأن الفساد لايدفع عن الناس بغير دافع ، وأن الايمان يحمى صاحبه ويحميه صاحبه ، فلا ايمان لمن لا ينصر الله وينصره الله ..

(وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) . « سورة البقرة »

(وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ) . (سورة الحج)

وأول ما يعتقده المسلم فى مسألة الخلق أن الله خلق الانسان من سلالة من طين وأنبته من الأرض نباتا وأنشأه مع سائر أبناء نوعه أطوارا كما جاء فى آيات متواردة من التنزيل :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ).

(سورة المؤمنون)

***

(ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ. ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ) . (سورة السجدة)

***

(مَا لَكُمْ لاَتَرْجُونَ لِلهِ وَقَاراً . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً) .

(سورة نوح)

فاذا آمن المسلم بنشأة الانسان من سلالة من طين وأنه نبت من الأرض نباتا ثم اتصل خلقه أطوارا فلا جناح عليه أن يتقبل مايثبته العلم الصادق من نشأة تلك السلالة بين مادة الأرض من طين وماء وبين هـذا الخلق السوى القويم ، أيا كان معنى السلالة فى الخبر الثابت ، غير مسئول أن يأخذ معناها مأخذ الايمان باليقين ..

ويكاد مذهب التطور أن ينوب عن المذاهب الفكرية فى التمثيل لاستعداد المسلم للنظر فى تلك المذاهب على عمومها ، اذ هو مذهب واحد يتغلغل فى كل جانب من جوانب العلم ويجرى تطبيقه على كل شعبة من شعب الحياة الانسانية فيما يعرض لها من الغير والأطوار فاذا تمهدت له مسالك التفكير أمام العقل لم يكد يعرض للعقل عائق دون مذهب آخر ينطوى فيه أو ينطبق عليه ..

***

والوجودية مذهب آخر من المذاهب الفكرية يشبه التطور فى هذا العموم الشائع بين الآراء والتطبيقات . فان الوجودية فى حقيقتها وجوديات كثيرة تتشعب فى كل ناحية من نواحى النظر والاعتقاد ، ولا تلتقى فى غير قاعدة واحدة هى الاعتزاز بحق الفرد فى الوجود ، لأنه عند الوجوديين هو الكيان الثابت الذى تصدق عليه صفة الوجود الصحيح ، اذ لا وجود فى غير الذهن للأنواع والأجناس والفصائل والأقسام ، ولكنها كلها أفراد متفرقة هى الموجودة بذواتها دون ما يطلق عليها من الأسماء و « الماهيات » فى اصطلاح المنطقيين ..

وليس على الفكر حرج أن يدحض زعم الزاعمين بوجود الفرد وبطلان وجود النوع فى الحس والعيان ، فهذا كله لا طائل تحته فى النتيجة التى يخرج بها الوجوديون من تلك المقدمة ، وانما نتيجتها أن الفرد مسئول وأنه صاحب الحق الواجب على قدر هذه المسئولية ، وأنه خليق ألا يدين لسلطان غير سلطان الضمير ، لأنه يحاسب على أعماله ونياته ولا يغنى عنه أمر الجماعة ولا أمر ذوى السلطان ، وذلك هو حق العقل فى الاسلام ، بل هو فيه واجب العقل لا يغنيه أن يعتذر منه بطاعة السلف أو طاعة الجماعة أو طاعة الرؤساء والأحبار ، وقد وصل العقل الانسانى الى هذا الحق ، وهذا الواجب ، بفضل العقيدة الاسلامية قبل أن يصل اليه من طريق الجدل العقام فى التفرقة بين وجود الذوات ووجود الماهيات

ولابد ــ فى عصور الثقافة خاصة ــ من كلمة سواء بين الدين وهذه المذاهب الفكرية . فما هى رسالة الدين وما هى رسالة المذاهب ؟ مهما يكن من رأى فى هاتين الرسالتين ففى وسعنا أن نقول ان الدين ينبغى أن يطلق للمذاهب الفكرية مجالها فى المسائل المتجددة ، وأن المذاهب الفكرية ينبغى أن ترعى للدين حرمته فى المسائل الباقية . ان المذاهب تذهب والدين باق . وليس بالمتدين ذلك الذى يحمل عقيدته ليطرحها عند أول مذهب يروقه ويوائم خواطره فى مشكلات يومه ..

***

وباستقراء الواقع فيما مضى وما حضر نتبين أن الاسلام قد قال هذه الكلمة السواء فى عهود كثيرة ، وأنه كان فى تلك العهود مذهبا فكريا وزيادة . لأنه لم يقرر أصلا من أصوله يحجر على العقل فى تفكيره ، ولأن الجانب الذى وكله الى الايمان من روح الانسان هو الجانب الذى لا يستطيع الفكر أن يقول كلمة أولى بالاتباع من كلمة الدين ..

العرف والعادات

دخلت فى الاسلام عند ظهوره أمم شتى من أبناء الحضارة والبداوة تأصلت لهم عادات عريقة وآداب موروثة وتباعدت المسافة بين تلك الأمم فى عاداتها وآدابها كما تباعدت فى مواقعها وتخومها ، ومنها خلفاء الفرس والبابليين والفينيقيين والكنعانيين والفراعنة والبربر وقبائل البادية أو البوادى المتلاحقة بين وادى النهرين ووادى النيل ..

عالم شاسع تعددت فيه الأزياء والمراسم والمواسم والأطعمة والأشربة والآداب والمصطلحات كما تعددت اليوم فى القارة الواسعة بين شعوبها التى تنتمى الى مختلف العناصر والأقوام ، فتعود المسلمون من اللحظة الأولى أن يوسعوا أكناف الاسلام لكل ما فى هذا العالم الشاسع من عرف وعادة ومن شعائر ومراسم ، وأصبح العالم الاسلامى مرادفا عندهم للعالم الانسانى عند النظر الى اختلاف الظواهر والأشكال ، وأعفتهم هذه النظرة السمحة من جمود التقاليد التى تنعزل بأصحابها عن العالم الانسانى أحيانا ، كلما أقام الدين وأتباعه زمنا طويلا فى معزل عن الناس

فلم يتحرج المسلمون من تلك الظواهر والأشكال فى غير شىء واحد وهو المساس بالعقائد والعبادات ، وكل ما زاوله الناس بعيدا من الهيكل والمذبح فهو حل مباح لايسألون عنه ولايبالون أن ينزعوا فيه منزع الأمم التى احتوتها الرقعة الاسلامية من تخوم الصين الى شواطىء المغرب الأقصى ..

احتفل المسلمون بالنيروز ، ولبسوا الطيلسان ، وأكلوا فى الأديرة وعلى موائد الدهاقين ، وركبوا البراذين والفيلة ، وتعاملوا بالدرهم والدنانير ، وسكنوا البيوت من بناء القبط والروم ، وعاشوا بدين واحد فى أزياء لا عداد لها ، فحققوا بذلك أن الاسلام دين العالمين ..

ولازمتهم هــذه السماحة فى العرف صدرا من الدعوة ومن الدولة الاسلامية الأولى ، فلم يعرفوا فى هذه الفترة مشكلة دينية تحتاج الى حل دينى فى شئون المعيشة من مأكل وملبس أو مسلك شائع فى معاملات الناس ، ولم تظهر هذه المشكلات الا مع ظهور الخوف على كيان الأمة الاسلامية ، خوف الفتنة من الداخل وخوف السيطرة من الأعداء ..

وتحرج المسلمون حين شعروا بالحرج فيما بينهم وفيما يهددهم من غلبة أعدائهم ، وشعروا بهذا الحرج من الدخيــل الذى يتوارى بين ظهرانيهم قبل أن يشعروا به من الدخيــل الذى يغير عليهم ويخضعهم بالقوة والمكيدة ..

أخذوا ينكرون العادات والمراسم التى لا غبار عليها فى مظاهرها حين علموا أن الدخيل فى ملتهم يتستر من ورائها لترويج العقيدة التى تلازمها والتمهيد للدولة التى تقوم عليهــا ، ومن هنا تلفتوا على حذر الى كل ظاهرة مجوسية أو بيزنطية تستأنف ظهورها فى البيئة الاسلامية ، وكاد السؤال عن الحلال والحرام يسبق كل حركة غريبة ــ مريبة ــ ترتبط بمراسم الأمم المغلوبة فى الزمن القديم قبل دخولها فى الاسلام ، والى هذا الحذر يرجع الشك فى المراسم الأعجمية حيث كانت بين المسلمين أو غير المسلمين ..

ثم اشتد هذا الانكار للغريب من الظواهر والعادات بعد زوال الدولة وخضوع الأمم الاسلامية للدولة المغيرة عليهــا ، وكاد هــذا الحذر أن يغلب جهود المصــلحين الذين التمســوا القوة من حيث أدركها أعداء الاسلام ، فحفزوا أقوامهم الى التشبه بأولئك الأعداء فيما أجادوه من أسلحة العلوم والصناعات ..

تحرج المسلمون من الظواهر والأشكال الأجنبية فى هذا الدور تحرجا لم يتعودوه فيما ســلف من تاريخهم فى أيام القوة أو فى أيام الفتنــة والحذر ، لأنهم شعروا بهذا الحرج فى عصر الهزيمة والخضوع ، وهما

أدعى الى الشك والنفور من فتنة الدخيل والحذر من صاحب الكيد المغلوب ..

ولم يكن ذلك التحرج شرا كله وان كان فيه شر كبير لم ينج المسلمون من عقابيله الا بشق النفس ، ولم يكد بعضهم يصدقون بالنجاة حتى الآن ..

بعض ذلك التحرج صادر من حصانة الاسلام ، وهى سجية يستمدها المسلم من استقلاله بضميره ومن شمول عقيدته التى لا تفصل الدين من الدنيا ولا تجعله فى الدين تبعا فهو أحرى ألا يكون تبعا فى الدولة ولا فى الدنيا ..

وربما هان على صاحب الدين الذى يفصل العقيدة عن عمل المعيشة ، أن يخضع لمن يخالفونه فى الدين والجنس واللغة لأنه يتعزى عن ذلك باحتقار الدنيا والفرار بروحه منها الى الحياة الأخرى ، ولكن عقيدة المسلم تأبى له هذا العزاء وتلقى فى روعه أن الله محاسبه على تفريطه فى مكانته ومناعة حوزته مذ كان التمكين فى الأرض علامة على صدق الايمان وصدق العمل به فى شئون الحياة وشئون المعايش على السواء

***

(وَلَقَدْ مَكَّنَّا لَكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ) (سورة الاعراف)

***

(وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا) (سورة النور)

***

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) (سورة القصص)

فاذا حاقت الهزيمة بالمسلم وضاعت منه الدولة واستبيحت عليه حوزته علم أنه قد خسر دنياه ودينه ولم يبق له من عزاء يطمئن اليه غير الأمل فى الخلاص من هذه المهانة والحذر من الاستغراق فيها والسكون اليها وداخله النفور من الغالب وتباعد عنه وعن عاداته وأحواله بشعوره وتفكيره ، فتحرز من محاكاته فيها بدلا من اللهج بها والولع بمشابهتها كما يحدث من الأمم المغلوبة التى استذلتها الهزيمة وطمست معالم استقلالها فراحت تستعير العزة المموهة من محاكاة الظواهر والأشكال ، قناعة بها عن العزة الصادقة التى تنال بالمقاومة واحياء المعالم الدارسة

ولعل فيلسوف التاريخ الاسلامى ــ ابن خلدون ــ كان أول من نبه المسلمين الى هذه الخلة فى المغلوبين وعدها من تمام التسليم بالغلبة والهزيمة ، فوقر فى الأذهان أن محاكاة الغالب فى ظواهره وأشكاله أول عوارض الفناء والتسليم على غير أمل فى الخلاص ..

فمن حصانة العقيدة الاسلامية استمد المسلم شعور التحرج من العادات الأجنبية فكان هذا التحرج خيرا بمقدار ما فيه من القضاء على بواعث المحاكاة التى تؤذن بالفناء والتسليم بالسيادة ..

ولكن هذه الحصانة السليمة الكفيلة بالسلامة لمن يعتصمون بها على فهم ودراية لم تلبث أن امتزجت بعوارض الجمود والخمول فأصابها ما يصيب الفضائل جميعا من المسخ والتشويه كلما خارت العزائم وسقطت الهمم ورانت الحيرة على العقول ، فتحرج المسلمون الذين أصيبوا بهذه المحنة من محاكاة الغالبين فى أسباب القوة واليسر كما تحرجوا من محاكاتهم فيما يهدد كيان الأمة بالزوال ويؤذن بمحو المعالم القومية على تتابع الأيام والأحداث ..

واستبد العجز بالنفوس فخيل اليها انها تركت باختيارها ما تركته فى الواقع عجزا عن المحاكاة وجهلا بأسبابها ، ولا سيما حين تكون هذه الأسباب مما يسوق العجزة المتواكلين قهرا الى السعى والتوافد على تحصيل العلوم والصناعات

فى هذه الفترة كثر التساؤل عن أمور لم تكن موضع سؤال فى صدر الاسلام وليست هى موضع سؤال فى هذه الأيام ، وسمع الاستفتاء بعد الاستفتاء فى الكبريت هل يجوز قدحه ؟.. وعن غاز الاستصباح هل تجوز الاضاءة به فى المساجد ؟ .. وعن التليفون هل يجوز وضعه فى المعاهد الدينية ؟ .. وعن الجغرافيا وعلوم الطبيعة هل يجوز تعليمها للتلاميذ ؟ .. ولاح لهؤلاء المتحرجين كأنهم يعيشون فى هذا العالم فى سجن مغلق يخشون أن يمدوا أصبعا الى شىء فيه فينطلق منه شيطان متربص أو مارد محبوس ..

ولم تدم هذه الغاشية الا ريثما تجددت الثقة فى النفوس وثبتت الأقدام على منهج الاصلاح فخفت وطأة الحرج الذى استمده المسلمون من حصانة دينهم وأيقنوا أن طرق التقدم وطرق العلم الحديث لاتفترقان وان المسلم أولى من غير المسلم بكل علم من علوم المعرفة لأنه مأمور بالبحث عن أسرار الخلق مطالب بالفهم والتفكير ، وتخلفت مع الجهل والخمول رواسب من الجمود تخلق الاحراج فى غير حرج وتضر كثيرا حيث تدعو الحاجة الى السير الحثيث فى طريق الاصلاح وتفيد أحيانا كلما اضطرت المتعجلين الى بعض الروية والاناة قبل الهجوم على كل شىء جديد ، لغير نفع فيه الا أنه يخالف القديم ..

وأغلب الظن أن رواسب الجمود كانت تزول أسرع مما زالت لو لم يكن فيها مآرب ولبانات لفئة من الحاكمين ترتهن منافعهم ببقائها وتتعرض مواردهم للنقص والزوال بما يطرأ على الحالة الراهنة من تبديل أو تحويل . وقد كانت الآستانة والقاهرة قبلة طلاب الاصلاح فى أرجاء العالم الاسلامى لأن الأولى كانت فى مستهل نهضات الاصلاح مقر الخلافة الاسلامية ، والثانية عاصمة الثقافة الدينية منذ عدة قرون ، ولم تخل حركة من حركات التقدم فى كلتيهما من بواطن خفية غير الظواهر التى يثار من حولها الشقاق بين دعاة الاصلاح وجماعة الحكام المشايعين للقديم ، ومن هؤلاء أصاب أولئك الدعاة أشد ما أصابهم من العنت

والتشهير ، وبما كان لهم من الجاه والسطوة اقتدروا على تسخير الأعوان لاستثارة الدهماء على الأئمة والقادة المصلحين وأحاطوهم بالتهم والأباطيل ، وأيسرها وأسرعها تفشيا بين الجهلاء تهمة الكفر وتهمة التواطؤ مع الأعداء على افساد الدين ..

***

ففى البلاد العثمانية الخاضعة للآستانة سبق الشعب رؤساءه الى مجاراة الحضارة ومسايرة العرف العصرى فى شئون المعيشة التى لا مساس لها بالعقيدة ، ولكن الدولة العثمانية تعرضت لثورة من أخطر ثوراتها حين أمر السلطان بتغيير ملابس الجنود « الانكشارية » وتنظيم كتائبهم على النسق العصرى فى الجيوش الحديثة ، لأن قادة هذه الفرق — ومن ورائهم بعض أعضاء البيت المالك المنافسين للسلطان — آثروا بقاء القديم على قدمه وأوجسوا من تبديل الملابس والأنظمة فى الكتائب الحديثة أن يتبعه فض كتائب الانكشارية وتزويد السلطان بقوة من منشآته تناصره فيما أراد من تعديل نظام الوراثة ..

وفى مصر كان الخلاف على أشده بين الخديو وحواشيه وبين أئمة الإصلاح — وعلى رأسهم الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية — وكان باطن الخلاف حول الرقابة على أموال الأوقاف ووظائف التدريس بالجامع الأزهر وبرامج التعليم فيه ، وظاهره على سفاسف لا تعنى الخديو وحواشيه فى كثير ولا قليل ولكنها ذريعة يستخدمونها فى اثارة الغبار حول موضوع الخلاف الأصيل واتهام المصلحين بسوء النية وفساد الطوية والافتيات على ولى الأمر وأعوانه المخلصين ..

وأشهر ما اشتهر من هذه المعارك الصاخبة حول السفاسف معركة الفتوى التى عرفت بفتوى الترنسفال وخلاصتها الوجيزة أن رجلا من الترنسفال سأل مفتى الديار المصرية عن بعض عادات اللباس والطعام فى افريقيا الجنوبية ، وعن جواز الصلاة خلف الامام مع اختلاف المذاهب

فأفتاه الشيخ رحمه الله بجواز لبس القلنسوة وجواز طعام أهل الكتاب لأنه حلال بنص القرآن الكريم :

« وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ »

وان الامام المسلم تجوز امامته ولا وجه للاعتراض على الصلاة خلفه وان اختلفت المذاهب ، لأن تخصيص مسجد باتباع كل مذهب يفرق جماعة المسلمين ولا يستند الى أصل من القرآن والحديث أو سير الأولين ..

***

ويخرج بنا من غرض هذه الرسالة أن نلم ولو مع الايجاز ، بنبذة من الآراء الفقهية التى تداولها الكتاب نقدا وردا وتشهيرا وتبريرا بعد صدور الفتوى الترنسفالية ، اذ ليس من غرضنا هنا أن نخوض فى الجدل الفقهى وما نحا نحوه من جدل المذاهب ، وما بنا من حاجة الى ذلك لأن القضية لم تكن من قضايا الفقه ولا كان الغلاة فى حملتها ممن ينكرون لبس القلنسوة أو الأكل على الموائد الأوروبية أو الصلاة خلف الأئمة الأحناف وفيهم الشافعيون والمالكيون كما يتفق أيام الجمع فى الصلوات الجامعة مع حاشية الأمور . وقد بدأ الانذار بالحملة قبل ورود الأسئلة وكتابة الأجوبة فى فتوى الترنسفال ، وعلى ذلك وصل الخبر الى دار الخلافة يومئذ فيما رفعه اليها صاحب صحيفة الراوى اليومية وهو من أعوانها وعيونها على خديو مصر فى ذلك الحين ، وقد أشار الى الفتوى وغيرها من معارك السياسة الخفية فى ثياب الغيرة الدينية فقال :

« وكان يظن — أى الخديو — أن مجرد ظهور الفتوى كاف فى اسقاط نفوذ المفتى الدينى أو التوصل الى عزله فظهر له خلاف ذلك .. وان النتيجة من كل ما تقدم أن سمو الخديو يريد أن يجعل لنفسه سلطة دينية آلتها الأزهر وماليتها الأوقاف ، وقد حدث بهذا كثيرين وقال : ان أوربا تهاب البابا والسلطان لأجل السلطة الدينية وهذه سهلة علينا ،

وانه ما دام الشيخ محمد عبده مفتيا للديار المصرية وعضوا فى الأزهر وفى مجلس الأوقاف الأعلى وفى شورى القوانين فلن يتم له فى ذلك عمل .. فالمفتى هو العقبة فى طريق هذه السلطة وحزبه كبير جدا (١) ..

***

وهذه المعارك المصطنعة هى التى أوقعت فى أذهان المعقبين على أحداث العالم الاسلامى أن المسلم يتحرج من غير حرج ويغلو فى الجمود على القديم لغير سبب ، ويخلط بين موروثات العرف وسنن العقيدة وآدابها المستفادة من أوامرها ووصاياها ، وكل هذا وهم ينفيه أن المسلم قد تعلم من كتابه النعى على الجامدين الذين يستعبدون عقولهم لعادات أسلافهم ويقتدون بهم لأنهم وجدوهم عليها ، وان كانوا لايعقلون . ثم جاءت سيرة المسلمين الأولين الذين تفرقوا فى أنحاء الأرض على خير ما تكون السماحة ، فعاشروا أبناء الأمم من الروم والفرس والترك والديلم والبربر دون أن يتحرجوا بنمط من أنماط المعيشة ولا بأسلوب من أساليب العرف ما لم يكن فيه مساس بالعقيدة والعبادة ..

فليس من روح الاسلام أن يجمد المؤمن على عادة موروثة لأنها عادة موروثة ، وليس من روحه أن يرفض عادة جديدة لأنها عادة جديدة ، ولكنه يعتصم من روح الاسلام بحصانة تعيذه من سحر الغلبة فلا تهوله بروعتها ولا تجنح به الى الفناء فى غمارها والاستسلام لقيادتها . وتلك مفخرة للاسلام تتمناها الأمم ولا تزهد فيها ، وما كان لأمة أن تزهد فى حصانة تقيم الحواجز بينها وبين عدوها ولا تحجزها عمن يسالمها ولو كان غريبا عنها ..

وسبيل المسلم فيما آثره مع الخلق من سلوك وعادة أن يأخذ بالعفو ، ويأمر بالمعروف ويعرض عن الجاهلين ..

---

(١) تقرير يوسف طلعت باشا – وفى الجزء الاول من تاريخ الاستاذ الامام صورة منه

خاتمه

كتبنا هذه الفصول عسى أن يكون فيها جواب هاد لأناس من الناشئين يتساءلون : هل يتفق الفكر والدين ؟ .. وهل يستطيع الانسان العصرى أن يقيم عقيدته الاسلامية على أساس من التفكير ؟ ..

ونرجو أن تكون هذه الفصول تعزيزا للجواب بكلمة « نعم » على كل من هذين السؤالين .. نعم يتفق الفكر والدين . ونعم يدين المفكر بالاسلام وله سند من الفكر وسند من الايمان ..

ولكننا نكتب هذه الخاتمة ونود أن نضيف بها سؤالا آخر يتمم هذين السؤالين ..

نود أن نسأل : هل يؤمن عقل الانسان بالدين فى هذا العصر ؟ .. ويرى فيه دينا أحق بالايمان به من الاسلام ؟ ..

أما أن يؤمن الانسان بالدين فى أعماق وجدانه بمعرفة الفكر فذلك بحث طويل لايستقصى فى سطور ولا صفحات ، ولكنه — مع خلوص النية — يتضح جليا مبينا من حقيقة واحدة ، وهى ان الانسان جزء من هذا الوجود غير المحدود لابد له من صلة عميقة تربطه به أبعد غورا من هذه الصلات الحسية التى تحصرها العلوم المتغيرة مع العصور والسنين

فكيف تكون هذه الصلة ؟.. ان فكر الانسان محدود ينقطع دون النهاية من هذا الوجود الذى ليست له حدود ، فهل تنقطع صلته بالوجود كله عند انقطاع فكره ؟ .. أو يعلم حدود نهايته ويعلم علما يقينا أن الصلة وراء ذلك لن تكون الا بالايمان ..

لابد أن يؤمن لأنه ذهب بالفكر الى نهايته ولم يبلغ النهاية ، ولابد — بعد طريق الفكر — من طريق يهتدى اليه الفكر ولكنه لايستعصيه ..

وإذا آمن المفكر بهذا فأى دين يختاره للجماعة الانسانية أفضل من دين الاسلام ؟ ..

ان الاسلام دين موجود . فالذى يشير على المسلم بدين غيره يريد منه أن يتركه ليدين بعقيدة أرفع منه فى درجات الاعتقـاد وأوفى منه بمطالب الجماعة ومطالب الآحاد ، وهذا ما يعتقده المسلم ، فما الذى يعتقده خيرا منه اذا نظر فى الاسلام وفى سائر الأديان ؟ ..

يعتقد المسلم فى الاله أنه رب العالمين ليس كمثله شىء وهو بكل شىء محيط ، لا يحابى ذرية دون ذرية ، ولا يختص بالنجاة فريقا دون فريق ، ولا يميز أحدا على أحد بغير العمل والتقوى ..

***

ويعتقد المسلم فى النبى أنه رسول هداية ، يعلم ما علمه الله ولا يعلم الغيب الا باذن الله ، يخاطب العقول ولا يقسرها على التصديق بالخوارق والأعاجيب ، ولا يملك لأحد نفعا ولا ضرا الا ما يكسبه لنفسه من خير وما يجنيه عليها من خسار ..

ويعتقد المسلم فى الأنبياء كافة أنهم رسل الله بالهداية يصدقهم جميعا حين يصدق برسالة نبيه ويصلى عليهم جميعا حين يصلى عليه ، يبشرون وينذرون فلا يهلك أحد من خلائق الله بغير نذير ، ولا تفوته النجاة لأنه سبق فى الزمان أو تأخر فيه ، بغير حيلة له فى السبق أو التأخير ..

ويعتقد المسلم فى الانسان أنه مخلوق مسئول عن عمله وعن نيته ، ان عمل صالحا فلنفسه وان أساء فعليها ، يؤاخذه الله بذنبه ولا يؤاخذه بذنب لم يقترفه ، وينجيه بتوبته ولا ينجيه بكفارة لم ينهض بثوابها .

ويعتقد المسلم فى بنى الانسان عامة أنهم أسرة واحدة من ذكر وأنثى ، أكرمهم عند الله أتقاهم ، وأتقاهم لله أنفعهم لعباده ، يتكاثرون بالأنساب ويتعارفون بالأعمال والأسباب ، فاذا نصبت لهم موازين الحساب فلا أنساب بينهم يومئذ ولا هم يتساءلون ..

ويعتقد المسلم فى الدين انه عهد بين المرء وخالقه ، أينما كان فثم وجه الله ، محرابه حيث أقام الصلاة بين الأرض والسماء ، وضميره حرم لا يباح الا بما يشاء ..

فاذا آمن المسلم بغير هذه العقيدة فما له من عقيدة خير منها فيما يعتقده انسان فى الله أو فى أنبياء الله أو فى خلق الله أو فى مشيئة الله ..

واذا قيل له لا تعتقد بالاسلام فقد قيل له : لا تعتقد بشىء ولا تؤمن باله ..

ويحق للمسلم على الحالين أن يعلم أن التفكير يوجب الاسلام ، وان الاسلام يوجب التفكير ..

***

ذلك منحى من مناحى العقل الواسعة ينحرف عنه ذو العقل الذى انتهى من بحوثه وتقديراته الى نبذ الأديان وانكار المعتقدات . وهى نهاية تعاب بقسطاس الفكر نفسه لأنها سوء تفكير ولا ينحصر عيبها فى سوء التقدير للضرورات التى استقام عليها بناء الجماعة الانسانية منذ وجدت فى التاريخ وقبل التاريخ ..

يعاب على هذا التفكير القاصر أنه انتهى الى غير شىء .. انتهى الى العدم . وليس ما وراء الفكر عدما بل هو وجود مطلق أزلى أبدى محيط بجميع الموجودات ومنها الفكر والمفكرون ، لايدركه الفكر بداهة ولكن ليدركه الايمان لا ليبقى منقطعا عن العقل والوجدان والشعور..

واذا قلنا ان هذا الفكر القاصر يعاب كذلك لأنه سوء تقدير لضرورات الجماعة الانسانية فليس هذا بالعيب الهين عند من يتأمل ويريد أن يتأمل ..

ان حاجة النفوس الى العقيدة فى الجماعة الانسانية برهان وأى برهان ..

برهان من الواقع ليكن كبرهان الحنان الأبوى على مصلحة النوع

فى البقاء . أيقدح فى حنان الآباء انهم ينظرون الى الأبناء بعين النوع كله ولا ينظرون اليه نظرة الغريب المجرد من هذا الحنان ؟ ..

برهان الجماعة حق فى العقل وحق فى الواقع ، وعلى الانسان الأمين لعقله ولنوعه أن يفطن لهذا الحق ويبحث عنه بحث المسئول لا بحث السائل الطارىء على القضية من بعيد ..

وعلى الانسان الأمين لعقله ولنوعه أن يرعى حرمة القداسة فى جماعته كما يرعاها فى ضميره ، فمن سلامة الضمير أن تكون سلامة الجماعة مما يتوخاه ومما يصونه ويحميه ..

وفى العالم اليوم جماعة انسانية تعد بمئات الملايين ..

أربعمائة مليون مسلم يعيشون بعقيدة قويمة ويعتصمون منها بحصانة قوية ..

***

هذا هو الاسلام ..

بنية حية تذود عن عقيدتها فتذود عن كيانها أو تموت ..

صانها الاسلام فى وجوه أعدائها فلتصنه فى وجوه أعدائه ، وأوجب ما يوجب عليها هذه الصيانة انها تطلق للضمير آفاقه وأعماقه وتحمى للجماعة ديارها وقرارها ، وانها لب ووجدان وتفكير وايمان . فان يكن للجماعة الاسلامية دين ، ولابد من دين ، فلا بديل لها من دين يهديها الى الفكر ويهديها الفكر اليه ..

فهرس

صفحة

طبع بمطابع
مؤسسة دار الهلال

